من موسوعة وصف مصر

(٣)

مدينة رشيد

تأليف : جولوا

ترجمة : زهير الشايب

اهداءات ١٩٩٣
صندوق التنمية الثقافية

من موسوعة وصف مصر

(٣)

مدينة رشيد

تأليف : جولوا

ترجمة : زهير الشايب

١٩٩٢

العنوان الأصلي للدراسة هو :

« دراسة موجزة عن مدينة رشيد، وتشتمل هذه الدراسة على وصف عبورنا عن طريق البحر من الأسكندرية إلى هذه المدينة، وكذلك على وصف الرحلة من رشيد إلى القاهرة عن طريق النيل» .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذه هى الدراسة الثالثة من الدراسات المختارة من الترجمة العربية الكاملة لموسوعة وصف مصر . وكانت الدراسة الأولى «كيف خرج اليهود من مصر القديمة» ، والثانية «مدينة الأسكندرية» .

وفى هذه الدراسة عرض الكاتب – بأسلوب أدبى متميز – وصفا تفصيلياً لمدينة رشيد وضواحيها إبان مجئ الحملة الفرنسية، متضمناً منشآتها وما فيها من آلات زراعية وحرف وصناعات يدوية، ثم وصفاً لما شاهده عبر الرحلة البحرية التى قام بها من رشيد إلى القاهرة .

ونحن – إزاء هذا القبول الواسع لفكرة عرض هذه الكتيبات– لا يسعنا إلا أن نتقدم بوافر الشكر لجمهور دارسينا وقرائنا الأعزاء .

والله نسأل العون والسداد،

منى زهير الشايب
يناير ١٩٩٢



الفصل الأول

العبور من الأسكندرية إلى رشيد

بعد بضعة أيام من نزول الفرنسيين إلى الأسكندرية أعطى القائد العام – بعد أن قام باستعراض للجيش – إشارة الرحيل، فتوجهت فرقة إلى رشيد، بينما تقدمت الفرقة الرئيسية نحو دمنهور، لكى تصل – بعد عبورها جزءاً من الصحراء – إلى تلك السهول الخصيبة من وادى النيل. وكنا قد استولينا لصالح الجيش على كل ما كان يوجد بالأسكندرية من مؤن ضرورية، وكان على الذين لم يتلقوا – مثلى– أمراً بوجهتهم أن يبقوا بالمدينة ليعانوا طيلة الأيام من مشاق ضخمة فى سبيل التزود بضرورات الحياة .

وفى هذه الظروف، الشاقة بقدر ما هى حرجة، اتخذت مع عديد من الرفاق قراراً بالتوجه إلى رشيد؛ وهى مدينة تقع على شواطىء النيل، وقد كنا نظنها – ونحن محقون فى ذلك – زاخرة بكل أنواع المؤن. وبعد أن اجتزنا الآلاف من المشاق والصعوبات مما لانرى فائدة من تعداده هنا، أبحرنا فوق مركب حربى صغير

من مراكب الحراسة كان راسياً فى الميناء الجديد. اجتزنا الممر القريب من الفنار وسرنا بحذاء الشاطىء، ووصلنا لنرسوا وسط الأسطول الفرنسى الذى كان قد ألقى رواسيه فى خليج أبى قير. وفى اليوم التالى أبحرنا نحو فتحة مصب النيل .

وسواء كانت الرياح التى تهب بعنف قد أقلقتنا، أم كنا نخشى ألا يكون عمق مياه البوغاز [١] كافيا فإننا لم نقرر مطلقاً فى هذه الظروف أن نعمل على إدخال مركبنا إلى النهر. عندئذ جعلونا نمضى فوق زورق مدفعية غاطسه غير عميق.

وحيث كانت المياه شديدة الهياج فإن تغييرنا لسفينتنا لم يتم إلا بشق الأنفس. صعدنا إلى زورق المدفعية ونحن نلعن البحر والأسفار، وعلى بعد ثلاثة أرباع الفرسخ من مصب النيل كان لون المياه أخضر فاتحاً، بل لقد لمحنا بوضوح، الخط الفاصل بين اللون الأخضر، لون مياه النيل، واللون الأزرق،لون مياه البحر.

---

(١) كلمة بوغاز بالتركية تعنى goster أى الحلقوم. و هو عبارة عن مدخل شديد الضيق ، يصل إليه المجرى مخترقاً كتل الرمال ، مكوناً ذراعاً عند مصب النيل . وهذه الكتل الرملية قد نتجت عن ترسيبات النهر ، حين يفقد سرعته عند اقترابه من البحر . وليس هناك ماهو أكثر تقلباً من هذا الممر ؛ فكتل الرمال التى يخترقها ، تتحرك على الدوام بفعل أمواج البحر' وعندما تهب رياح الغرب ، أو رياح الشمال بشىء من العنف، تندفع مياه النيل من جديد عائدة إلى مصدرها، فيضطرب المجرى فى كل مكان ، حين تلقى المياه أدنى مقاومة.

وماإن اجتزنا البوغاز حتى تغير اللون الأخضر إلى اللون الأصفر، الناتج بلا ريب من لون الرمال التى ينقلها النهر إلى مصبه، والناتج كذلك من لون الطمى العالق بمياه النهر.

وعندما يكون البحر هائجاً فإن عبور البوغاز يشكل بالفعل مشهداً مفزعاً. كذلك فإن كثبان الرمل التى تحيط بفتحة مصب النهر متحركة مثل الأمواج ذاتها. وليس لمن يبحر فى هذه المنطقة أن يأمل فى النجاة من الغرق إلا إذا كان يقوده بحار متمرس شديد الخبرة. ولقد كان معنا لحسن الحظ بحار بالغ المهارة جنبنا بحذق شديد مهالك يمكن القول بأنها كانت تحيط بنا من كل مكان. وما أن دخلنا النهر حتى أبدى البحار ابتهاجا شديداً، وعبر له بعض الركاب، وهم يعطونه بعض قطع النقود، عن بالغ تقديرهم لمهارته وحذقه.

كنا قد خلفنا وراءنا العواصف والبحر الهائج، ولم نعد نسمع صوت ضوضاء الأمواج التى تتدافع لتتكسر فى صمت على كتل الرمال وعلى الشاطىء، وكنا نستمتع بالهدوء الشديد العمق، وكنا نتابع بعيوننا جمال شواطىء النيل الذى يستعصى على الوصف، فلم نجد أى أثر للمبالغة فى تلك الحكايات التى كان يقصها الرحالة الذين سبقونا إلى هذا المكان، وكانت الريح تملأ شراعنا، وكنا نتقدم بسرعة نحو مدينة رشيد، الهدف القريب من رحلتنا.

وسرعان ما اجتزنا أنقاض حصن قديم مهجور (١)، كان يستخدم فيما مضى لحراسة مدخل النيل، وهو الذى خاض منه الفرنسيون فيما بعد معركة دفاع بطولية (٢) بعد أن أصبح بعد ترميمه مقراً للعجزة والجرحى الفرنسيين .

خلفنا عن يسارنا جزيرة كبيرة بعض الشىء، تغطيها الخضرة وتنتج أفضل المحاصيل، أما عن يميننا فقد كان ثمة غابات من النخيل ذات خضرة أخاذة، وحيث إن شطآن النهر قليلة الارتفاع فقد كان مدى البصر يمتد إلى بعيد حيث القرى الصغيرة والخصيبة، وكنا نلمح هنا وهناك كفوراً تتكون من عدة منازل بعضها من الطوب وبعضها مجرد أكواخ من قش البوص،

---

(١) انظر شكل هذا الحصن ، المجلد الأول ، اللوحة ٨١ ، الدولة الحديثة.

(٢) فى التاسع عشر من جرمينال من العام التاسع (١٩ ابريل ١٨٠١)، هوجم حصن جوليان، وقد أطلق الفرنسيون عليه هذا الاسم، وهو اسم مساعد قتل عند النزول إلى الأسكندرية بيد الانجليز، وقد أبدى الحصن مقاومة كبيرة، وتحمل حصاراً دام عشرة أيام، على الرغم من النيران المستمرة التى كانت تطلقها المدفعية القوية المعادية. وفى النهاية استسلمت الحامية، يوم التاسع والعشرين، بعد أن نالت كل أمجاد وشرف القتال. وسأل الانجليز، وهم لا يرون الا صفاً من العجزة والمشوهين: متى إذن ستخرج الحامية؟ ذلك أنهم لم يكونوا ليتصوروا مطلقاً، انهم كانوا مشتبكين فى هذا القتال العنيف مع عجزة وعميان.

وينبغى أن نتذكر هنا،أنه عند عمل تنقيبات، وقت ترميم هذا الحصن، عثر المسيو بوشار Bouchard، الضابط المهندس، على حجر رشيد الشهير، ذلك الأثر الثمين، الذى وضع منذ وقت طويل تحت يد علماء أوربا، وقد صورت الكتابات الثلاث الموجودة على هذا الأثر المصرى على اللوحات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤، المجلد الأول، الدولة القديمة.

وكنا نلمح هنا وهناك كذلك بعض مساكن منعزلة ومآذن رائعة وأضرحة ومقابر لأولياء المسلمين تتجمع حولها بشكل جذاب بعض مجموعات من النخيل. أما من جهة الدلتا، فقد كانت العيون تستقر بارتياح وإعجاب فوق حقول يغطيها الأرز، فتشكل واحداً من أبهج المشاهد. وغير بعيد من النهر ينمو بوفرة شديدة عديد من المحاصيل والشجيرات يلاحظ من بينها مجموعات من أشجار البرتقال وأشجار الليمون التى تنشر شذى طيباً. أما شطآن النيل نفسها فتزينها نباتات الغاب والخيزران والبشنين «عروس النيل»، وتنتشر هنا وهناك فى كل مكان أشجار الجميز الضخمة التى تغطى أفرعها الكبيرة مساحة واسعة، فتشكل واحداً من أبهج مشاهد الخضرة. و تدب الحياة فى هذه اللوحة الرائعة، حين يظهر بين الحين والحين بعض السكان الذين كانوا بلحيتهم الطويلة وردائهم ، يشكلون بالنسبة لنا شيئاً رائعاً وغير مألوف فى وقت معاً، وكان هذا المشهد مثاراً لاهتمامنا الكبير على الدوام.

وفى النهاية وصلنا إلى ميناء رشيد، وكانت القوات الفرنسية قد سبقتنا إلى المدينة فى اليوم السابق .

الفصل الثانى

المظهر الخارجى لرشيد وضواحيها

تقع رشيد أسفل خط العرض ٣٥ً ٨َ ٢٨ْ وعلى خط طول ٣٤ً ٢٤َ ٣١ْ. وهذه المدينة، التى كانت قليلة الأهمية فى زمن أبى الفداء، هى اليوم واحدة من أهم مدن مصر بسبب موقعها وتجارتها واتساعها.

وحيث إن رشيد قابعة على شط النيل وعلى بعد ثلاثة فراسخ من البحر، فإنها تستخدم كمستودع للبضائع القادمة من القاهرة، والمناطق العليا من مصر «الصعيد» كى تنقل إلى أوربا عن طريق الأسكندرية، وبنفس الطريقة، فهى تستقبل البضائع التى تنزل إلى الأسكندرية قادمة من أوربا ؛ وتنقل هذه البضائع إلى القاهرة عن طريق النيل، ومن هناك تتوزع إلى كافة أنحاء مصر. ويرجع إنشاء رشيد إلى القرن التاسع، ويخبرنا المكين بأنها قد بنيت فى عهد المتوكل خليفة بغداد حوالى عام ٨٧٠. ولقد

ورثت رشيد المكانة التى كانت تحتلها من قبل مدينة فوه والتى كانت فيما مضى، شأنها فى ذلك شأن مدينة رشيد، مستودعاً للتجارة، ومقراً للقناصل الأوربيين، ثم زال عنها اليوم مجدها القديم.

وقد استمد فرع النيل الذى يمر أمام هذه المدينة اسمه من اسمها، وكان هذا الفرع يحمل فى العصر القديم اسم الفرع البولبيتينى نسبة إلى مدينة بولبيتين الواقعة على نفس الفرع. ويشير إتيان دى بيزانس إلى هذه المدينة دون أن يحدد موقعها بدقة، ويتحدث بلين عن فتحة «مصب» بولبيتين على النهر لكنه لايتحدث ولو بكلمة واحدة عن المدينة. ويمكن الاعتقاد بأن موقع بولبيتين كان يوجد إلى الجنوب من رشيد غير بعيد عن حصن أبى منصور الذى سنتحدث عنه عما قليل. وفى الواقع فإنه يوجد فى أسفل هذا الحصن خليج صغير، نصف دائرى، يبدو أنه كان يستخدم فيما مضى كميناء، وقد أصبحت تسده فى هذه الأيام رمال الصحراء. ومنذ فترة غير بعيدة تمت تنقيبات فى هذا المكان فعثر فيه على أعمدة رائعة من الجرانيت[1]، وهذا سبب جديد

(١) انظر رحلة إلى مصر العليا ومصر السفلى، تاليف سونينى Sonnini ، المجلد الأول، ص ٤٠٥ .

يحبذ الاعتقاد فى صحة الرأى الذى عرضناه للتو عن الموقع المحتمل لمدينة بولبيتين القديمة .

ولكى نصل إلى حصن أبى منضور، سرنا بحذاء الشط الأيسر للنيل، وهو شط مناسب لحد كبير، وفى النهاية لمحنا ثلاث قطع من الأعمدة الجرانيتية، اثنتين منها تمثلان بقية لأعمدة متماثلة كانت مقامة على شواطىء النهر، ولكن لعل هذه القطع التى وجدناها كانت بعيدة بعض الشىء عن موقعها الأصلى. وقد رأينا كذلك على بعد مسافة من هذه القطع جذعاً آخر لعمود كان الأهالى يستغلونه فى صنع الأرحاء «رحى». وهذه الآثار القديمة التى عثرنا عليها فى هذا المكان الذى أشرنا من قبل إليه تأتى لتدعم أكثر، احتمال كون هذا المكان هو الموقع الجغرافى لتلك المدينة التى أعطت اسمها فى العصر القديم للفرع البولبيتينى .

وعند سفح حصن أبى منضور، توجد صومعة إسلامية «زاوية» يشكل مظهرها النظيف تناقضاً صارخاً مع تلك المساكن القذرة فى أحط أحياء رشيد، وهى ملحقة بمسجد أقيم تكريماً لولى مسلم تقع مقبرته فى داخله. وأبو منضور هو اسم هذا

الولى، وهذا الاسم يعني بالعربية: أبا الروعة وأبا الجمال، أما المكان نفسه فهو بمثابة مزار يتوقف عنده البحارة والمسافرون ليقدموا نذورهم إلى شيخ الجامع حتى يحوزوا بركة ورضاء الولى، كما يحدث الأمر نفسه فى مزارات كثيرة لأولياء آخرين عرفناهم فى مصر، حيث يبلغ الوهم بالناس أن الولى من هؤلاء، قادر على جلب الخصوبة للنسوة العقيمات اللاتى يجئن إليه ضارعات .

وينهض حصن أبى منصور على أحد المرتفعات الممتدة إلى الجنوب، والتى تلامس الخليج الصغير الذى تحدثنا عنه، وهو مربع الشكل ويبدو أنه قد بنى فى زمن العرب، وهو متصدع حتى أساسه وينذر بانهيار قريب، ومن حوله تتراكم الرمال التى تذروها رياح الصحراء فغاص فيها حتى منتصف ارتفاعه، وتحيط به المقابر وكأنما الأمر نذير بالدمار الذى سيكون عليه هذا المكان ذات يوم .

وعندما صعدنا إلى المبنى تمتعنا بواحد من المشاهد الجميلة التى تختلف اختلافاً بيناً عن تلك المشاهد التى ألفناها فى أوربا، وهى ليست تلك المشاهد الرومانسية التى تعلن عن نفسها تلقائياً

بتنوع مناظرها الطبيعية حيث الجبال والسهول تشكلان تناقضات جذابة للعيون، فالتناقضات هنا محددة بحسم، فهناك الصحراء الليبية فى جانب، وفى الجانب الآخر هناك شواطىءالنيل البهيجة، وهكذا يمكن القول بأن الحياة والموت يتجاوران . وإلى الغرب نلمح تلك الصحراء التى تفصل رشيد عن الأسكندرية، لكن المشهد يضيع وسط الرمال المتحركة التى لم تبق مطلقاً على أثر لخطوات الرحالة. ولقد كان من الممكن ألا نلحظ الآثار الواقعة على طريق الأسكندرية - رشيد لو لم تكن تشير إليها وتلفت الأنظار تلك الأعمدة التى من الطوب النيئ والتى تنهض تباعا بطول الطريق. وتزحف هذه الرمال المتحركة حثيثاً نحو مدينة رشيد حتى ليبدو وكأنها تريد أن تغزوها كلية ، فهى تتراكم حول أشجار النخيل وحول أقل العوائق التى هناك لتكون كثباناً يتزايد عددها يوما بعد يوم، ولسوف تغطى - عما قليل - الرقعة المنزرعة من الأرض ، وحينئذ ستكون هذه الرمال -كما سبق أن عبر المصريون القدماء بدقة - هى طيفون الرهيب الذى يهدد بغزو مملكة أوزيريس، أى أرض مصر الخصيبة .

وعندما ينتقل المرء بنظراته نحو الشرق، يرى تحت بصره نيل

مصر العظيم، تسبح فوقه قوارب ذات شكل جذاب. ويرى كذلك ريف الدلتا البهيج حيث تمتد حقول الأرز وصفوف أشجار النخيل والجميز ذات الخضرة اليانعة، رائعة الجمال. وكل شيء في هذا الجانب ينم عن حيوية دافقة، وكل شيء فيه يمتليء بالحياة، فهناك ترى قطعان الجاموس، ترعى الكلأ أو تغمس جسدها في النهر، وترى الفلاح منهمكاً في أعمال الحقل دون أن يسمح لنفسه بالتقاط أنفاسه . فتراه وهو يدير ماكينة الري كي يسقي حقوله فينمو محصول الأرز وينضج فيحصل بذلك على مقابل مابذله من جهد بالإضافة إلى مايبتغي من ربح .

وليس الريف في شمال الدلتا بأقل ثراء أو أقل خصوبة، ولا هو أقل محصولاً، وتقطع الريف هناك وتخترقه آلاف من الترع والقنوات الصغيرة التي توزع في كل مكان مياه النهر ، سواء كانت تأتي إليها المياه بشكل طبيعي أو كانت ترفع إليها عن طريق ماكينات هيدروليكية من تلك التي تستخدم في هذه البلاد . ويشكل البحر خلفية هذه اللوحة ، حيث يمتزج امتداده الواسع بالسماء .

ويمكن للمرء من حصن أبي منضور أن يلاحظ حركة السفن

التى تسير بحذاء شاطىء البحر كى تدخل إلى مصب النيل، كما يمكنه أن يرى تلك السفن الضخمة التى تمخر عباب البحر. وكم من مرات تملكتنى النشوة فى هذا المكان وأنا واقف اتطلع إلى ذلك المشهد الرائع، فبعد أن أكون قد أنهكت طويلاً فى العمل كنت أذهب إلى هناك ساعياً للترويح عن النفس، وعلى نفس المنوال فعندما كانت ذكرى الوطن الحلوة تلح على مخيلتى بشكل قوى، كنت أذهب إلى البرج، وهناك كنت أرى - فى مخيلتى- الطريق المؤدى نحو الوطن، نحو فرنسا، التى لايمكن للمرء مطلقاً أن يفارقها دون أسى. وذات يوم، وبينما أنا غارق فى أفكارى الحزينة، تتولد فى نفسى هذه المشاعر، فإذا بصوت مكتوم يدوى فى أذنى، ويتكرر الصوت مرة ثانية، وثالثة، وأخيراً تبينت الأمر، إنها أصوات مدافع.

كانت أول فكرة خطرت لى هى أن هذه الأصوات لايمكن أن يكون مصدرها إلا الأسطول الفرنسى الذى ألقى رواسيه فى خليج أبى قير، عندئذ ألقيت ببصرى فى هذا الاتجاه فأبصرت كل بحريتنا، لكن الشمس كانت عندئذ تغيب خلف الأفق ، وعندما أصبح الليل معتماً أمسى فى الإمكان رؤية البروق الناجمة عن

طلقات المدافع، وأطلقت السفن دفعة واحدة مدافعها، وعلى الفور حلت ضجة مفزعة مكان ذلك الصمت العميق، آه . . لقد اشتبك الأسطول الانجليزى مع أسطولنا ودارت معركة وحشية. وظهر بريق أبيض أخذ وضوحه يزداد على الدوام ليعلن أن ثمة سفينة قد اشتعلت فيها النيران، وبرغم ذلك فإن هذه السفينة[1] لم تتوقف عن صب مدافع جوانبها بينما تتلاعب بها الأمواج مظهرة مؤخرتها تارة وجانبها تارة أخرى، كانت تشتعل بينما هى تقاتل، وظلت على هذا الحال نحو ساعة، حتى قفزت عالياً فى الهواء عندما وصلت النيران إلى مخزن البارود .. وفى حياتى كلها، لم تر عيناى مشهداً يبعث كهذا المشهد على الروعة والرعب فى وقت معاً، ولتتصوروا حزمة كبيرة من النيران ترتفع من وسط البحر داخل دائرة من سحب الدخان والأنقاض الملتهبة، إن انفجار بركان لايمكنه مطلقاً أن يقدم مشهداً أكثر روعة وفى نفس الوقت أكثر رعباً. وفى واقع الأمر، فإنك ما إن تتخيل مجرد تخيل

---

(١) كانت هذه السفينة تسمى لوريان l'orient، أى الشرق ، وهى مكونة من ثلاثة طوابق ، وكان يقودها الأميرال بروى Brueyc.

أخطار معركة بحرية فسوف ترتجف على الفور: فكل شيء هناك يتواطأ على هلاك الإنسان : البحر الهائج والرياح المزمجرة والنار المهلكة المدمرة.

وفى حوالى العاشرة مساءا كفت أصوات المدافع عن أن تسمع، ولكن ماكادت أصوات المؤذنين فى اليوم التالى تنادى الناس إلى الصلاة من فوق المآذن(١) حتى عادت المعركة تنشب من جديد. وعندما يكون المرء بالغ التأثر لحد عميق، وعندما تأكله الأفكار والهموم والقلق فإنه يخلع على الأشياء الخارجية ذلك اليأس الذى يستبد بنفسه هو، ذلك أنه لم يسبق لى مطلقاً من قبل أن سمعت نداء هؤلاء المؤذنين - وهو الذى يتم على الدوام بأصوات منغمة - حزيناً هذه الدرجة من الحزن والأسى. وأسرعت إلى حصن أبى منصور. كانت ثمة سحب من الدخان كما كانت هناك ضجة مكتومة تعلن أن المعركة تدور بضراوة، وبعد ذلك لاح منظر شبيه بالمنظر الذى رأيته فى المساء

---

(١) يدعو المؤذنون للصلاة خمس مرات فى اليوم فى الصباح قبل شروق الشمس ، وفى الساعة التاسعة (كذا) وعند الظهيرة ، وفى الساعة الثالثة ، وعند غروب الشمس ،

:سفينة(١) أخرى تشتعل فيها النيران وهى تقفز فى الهواء. لنكف الآن عن الحديث عن هذه المعارك القاتلة والمحزنة فلم يكن النصر حليف الفرنسيين هذه المرة، ولم يكن النصر ليقدم لهم مباهجه إلا بعد عام كامل، وفى نفس مكان تلك المعركة الشهيرة : معركة أبى قير(٢)، حيث سحق الفرنسيون جيشاً تركياً بأكمله يتكون من ١٥- ١٨ ألف جندى، ألقى بكثير منهم فى البحر، ووقع الباقون أسرى، دون أن يتمكن رجل واحد منهم من الهرب .

وطيلة إقامتنا فى رشيد كنا نتابع جولاتنا إلى خارج المدينة، وعبرنا المراعى التى تقع إلى الشمال من المدينة تجاه البحر، وتروى هذه المراعى قنوات ضيقة تغذيها بالمياه - فى الوقت الذى لاتمتلىء فيه هذه القنوات بشكل طبيعى - سواقى سوف نتحدث عنها بعد قليل بشىء من التفصيل، وعندما يقترب المرء أكثر

(١) هذه السفينة هى الفرقاطة l'Artèmise، التى كان يقودها الكابتن ستانلى ، وعندما لم تطاوع قائدها نفسه على الاستسلام ، أضرم النار فى سفينته ، بعد أن قاتل حتى النهاية . وقد أنزل كل بحارته على البر، وكان هو نفسه فى أمان ، لكنه حين لاحظ أن النار لاتنتشر فى السفينة بالسرعة الكافية ، عاد إلى سطح السفينة ، وجمع اثنين من البحارة كانا مخمورين فى العنبر ، وهرع بهما إلى قاربه ، وأشعل بنفسه النار فى كل مكان وانصرف، وبعد لحظات لم يكن للسفينة من أثر .

(٢) حدثت هذه المعركة فى السابع من ترميدور من العام السابع (٢٥ يولية ١٧٩٩).

فأكثر من البحر، تصبح التربة فى شكل مستنقعات ولايعود الشاطىء نفسه يتكون إلا من رمال .

لم نستطع أن نقاوم طويلاً رغبتنا فى زيارة جزيرة «وارسى» الواقعة أسفل مدينة رشيد، فقد كان منظرها البهيج يستحثنا على زيارتها . عرجنا على قرية يشى مظهرها بالبؤس، فبيوتها عبارة عن أكواخ فقيرة، دائرية الشكل تعلوها أبراج الحمام، وسقف هذا النوع من الأكواخ مصنوع من جذوع النخل وتمتلىء الفراغات فيما بين هذه الجذوع بقش البوص، ويغطى ذلك كله بالطين، لكن مايعوضك عن مشهد هذه البيوت البائس، هو مايغطى الجزيرة كلها من خضرة يانعة، بالإضافة إلى أشجار الجميز الضخمة التى يجد فى ظلها المسافرون – بين مسافة وأخرى – مأوى من لهيب الشمس كما يجدون فيها مشهداً ساحراً .

وهناك أشجار منتشرة فى هذه الجزيرة، وفى ذلك الجزء الموازى لها من الدلتا، تنحصر فى أشجار النخيل والتوت . وقد شاهدنا فى الدلتا – عن قرب – حقول الأرز التى تصنع ثروة هذه البلاد، ويقوم الفلاح بإغراق هذه الحقول بمياه النهر التى

يرفعها إما بيده «الشادوف» وإما بواسطة ماكينات هيدروليكية «السواقى»، ويصنع الفلاح سدوداً صغيرة من الطين حول مربعات مزروعة بالأرز، وعندما يريد إدخال المياه إليها يقوم بقطع هذه السدود، ويحدث هذا دون جهد يذكر. وتقطع الأرض فى هذه المناطق ترعة رئيسية صغيرة توزع المياه بعد ذلك عن طريق ترع أكثر صغراً «المساقى» .

وقد جذبت بساتين رشيد، وهى على الدوام تحظى بالإعجاب، انتباهنا . وكانت هى فى معظم الأحيان الهدف المنشود من نزهاتنا، وكنا فى كل مرة نزور حديقة « جنينة » إبراهيم بك التى أصبحت نتيجة لأحداث الحرب عقاراً فرنسياً، ولاينبغى عليك أن تأمل فى العثور فى مثل هذه الجنائن على المشاهد والاستعدادات التى تراها جميلة فى حدائقنا، فثمة اختلافات كبيرة فى الواقع بين هذه وتلك، تماثل تلك الاختلافات فى التقاليد والطباع التى توجد بين المصريين والفرنسيين، إذ يظل هؤلاء على الدوام نقيض أولئك . فقلما يغير المصريون من مكانهم بل إنهم لايعرفون مطلقاً معنى أن تتريض، وعلى العكس من ذلك فحيوية الفرنسيين ونشاطهم يجعلانهم على الدوام فى حركة دائبة .

وتحتوى جنينة إبراهيم بك على كمية هائلة من أشجار الفاكهة ، لكنها مبعثرة بلا فن ولا ذوق كما لو كانت فى داخل غابة، وترى هناك عدداً كبيراً من أشجار الموز ذات الأوراق العريضة والطويلة والتي يبدو نسيجها وكأنما صنعته يد الإنسان، كما يرى المرء هناك كذلك أشجار البرتقال والليمون والريحان والرمان بوفرة. ويظهر العنب فى آلاف الأماكن المتفرقة يلف سيقانه المرنة حول جذوع الأشجار والشجيرات، وترتفع أشجار الجميز هنا وهناك كما لو كانت ملوك الأشجار المتوجة لتعلو فوق كل هذه الشجيرات التي تنشر شذاها إلى مدى بعيد .

يقطع جنينة إبراهيم بك عدد كبير من قنوات الرى الصغيرة التى تصلها المياه بفعل ماكينات سوف نصفها بعد قليل . وثمة حجرة عند مدخل الجنينة كان البكوات يأتون إليها طلباً للراحة وتنسم الهواء . وهى مرصوفة بالرخام، وفى وسطها حوض مثمن الزوايا وعميق بعض الشيء، وهو يمتلىء بالمياه . وتوجد حول الحوض منصات مرتفعة كانوا يجلسون عليها القرفصاء على طريقة المصريين . هنا كان إبراهيم بك يستقبل المقربين إليه، وينصت باهتمام -- بينما هو يدخن غليونه ويشرب قهوته --

الحكايات التى كان يقصها عليه متملقوه لتسليته، أو للأمور الجادة التي جاء رجاله ليضعوها رهن إشارته. وبرغم ذلك فليست هذه الحجرة على الدرجة المفترضة من النظافة، وهى من هذه الناحية مثل كل الحجرات من هذا النوع، والتى أتيح لنا أن نراها منذ نزلنا إلى مصر .

وقد يتهيأ المرء وهو يعيش وسط أشجار وشجيرات بساتين رشيد لأن يترك لخياله العنان، وأن يدع نفسه مع أحلامه، لولا أن الاضطرابات وانعدام الأمن الذى يسيطر على هذه المزروعات سرعان مايحطم هذا الحلم. وبرغم ذلك فإنك لاتستطيع إلا أن تستسلم للبهجة التى تصنعها الروائح التى تفوح من كل مكان، وللمشهد الأخاذ لزهرة الرمان ذات اللون الأرجوانى، ولزهرة الريحان ذات اللون الأبيض الباهر، ومع ذلك فهل يمكن لهذه الجداول التى تنشر الماء والنماء فى كل مكان والتى تحمل مياهها الموحلة طمياً مائلاً للسواد.. هل يمكن لها أن تدخل فى مقارنة مع نهيراتنا الرائعة، التى تتسلل وسط غاباتنا وحدائقنا، حيث تنشر وتروى هذه الأبسطة من الخضرة التى لا نلمح لمثلها أثراً فى أى مكان من حدائق رشيد؟ وبلا جدال فإن ثمار التين التى لاتحصى

والتى تغطى الأشجار، تزين المنظر، كما أن أسبطة البلح الضخمة والمدلاة من أشجار النخيل تحث المرء حثاً على تذوق ثمارها، ثم إن تلك الرمانات الضخمة تعد بانعاش صحى، أما عن ثمرة الموز فلابد أن المرء سيجدها فى الغالب لذيذة الطعم . . ولكن، أتستطيع هذه الفواكه أن تتفوق على الفواكه التى تنتجها فرنسا بتنوع ووفرة شديدين ؟ تلك مسألة لايمكن أن يحسمها سوى الذوق والاعتبار.

ويزرع فى جناين رشيد الشمام والبطيخ، وهى فواكه تبدو رائعة فى بلد تشتد فيه درجة الحرارة .

وتقع كل بساتين رشيد هذه على وجه التقريب على حافة الصحراء وتشكل سياجاً يحدد مساحتها، وكذلك فإن الأشجار التى تزرع فيها تصنع مايشبه حواجز تصد عن المدينة رمال الصحراء فتتراكم حولها [أى حول الأشجار] .

وإذا كان لنا أن نتغاضى عن كل الأشياء الواقعة إلى خارج رشيد، فإننا لانستطيع أن نلزم الصمت إزاء مدافن الموتى . وتقع هذه المدافن غير بعيد من البساتين التى تحدثنا عنها للتو، إلى الغرب، وعلى بعد مسافة قصيرة من المدينة . وتمثل مبانى هذه

المقابر أنماطاً خاصة برشيد حيث لم نجد مثيلاً لها لا في أبي قير ولا في الأسكندرية، على الرغم من أنهما لاتبعدان كثيراً عن رشيد. وقد رسمنا واحدة من هذه المقابر في اللوحة ٨٢ « الشكل ١٢ » بالمجلد الأول – الدولة الحديثة. وهي تشكل نمطاً بالغ التأثير وبخاصة في لعبة الظلال . ويبدو أن هذه المقبرة قد أنشئت لعائلتين متصاهرتين .

وقد استخدم الخشب بشكل رئيسي في بنائها، وتبدو الشرائط المخصصة للحفاظ على بواكيه مكشوفة بلا غطاء، بل إنك تلاحظ وجود الخشب كذلك في أجزاء كثيرة من المبنى حيث زال جزء كبير من الملاط الذي يغطيه ،أما الأعمدة التي تحمل القائمة الوسطى فهي من الرخام. أما فوق المقابر الأكثر بساطة والتي توجد في المقدمة، فيلاحظ وجود حفرة مربعة الشكل يبلغ عمقها حوالي ١٤–١٥ سم ويوضع بها كمية من التراب يمكن أن تزرع فيه بعض النباتات. وتبعث أرضية المقابر على الحزن فهي بيضاء اللون فاتحة ، وهنا وهناك تتبعثر قطع الأحجار الصغيرة ونادراً ما يُلمح فيها أثرٌ لنبات، ويشكل الرسم رقم ١١ من اللوحة المشار إليها مقبرة لايبين منها إلا جزؤها الأعلى حيث إنها تظهر

من فوق سور المدافن. وتدخل المقابر الموجودة إلى الأمام فى نطاق هذا السور، وهى تبدو مقوسة من الداخل ويبدو أن الأجساد توضع فيها فى جزئها الأمامى تحت الأرض.

وتقضى النسوة أيام الذكرى السنوية للمتوفين، نهاراً - كما هو معروف - فى المدافن، فيحضرن معهن طعامهن ويغرسن سعف النخيل أو الورود فى تلك الحفر الصغيرة التى نفذت فوق المقابر، وتلك عادة تماثل كثيراً العادة التى تتبعها هذه الأيام فى مناطق عديدة من فرنسا، بل وفى باريس ذاتها .

الفصل الثالث

الماكينات المستخدمة فى الزراعة والرى

أخذت على عاتقى أن أتناول – فى دراسة مستقلة – مختلف الأدوات المستخدمة في الرى والزراعة التى رأيتها خلال جولاتى المتعددة، لذلك فلن أتناول هنا هذا الموضوع إلا بشكل موجز، مادمت قد قدمت فى مكان آخر دراسات أكثر شمولاً عن هذه الأمور، وبخاصة تلك التى شاهدتها فى عاصمة مصر: تنقسم الماكينات المستخدمة فى الرى فى رشيد وضواحيها إلى ثلاثة أنواع، هى :

تلك التى تسمى الشادوف[1] ، والمنطال، والعجلة ذات الثقوب المجوفة، والعجلة ذات القواديس.

ويتم الرى بواسطة الشادوف عن طريق رجال يتخذون أماكنهم فى طوابق يختلف عددها بحسب ارتفاع الأرض المطلوب زراعتها بمياه النهر، وفى كل طابق من هذه الطوابق يرتفع

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ٦، الشكل ١ ، المجلد الثانى ، الدولة الحديثة .

جداران صغيران مـن الطين وأحياناً يكتفي بغرس شعبتين في الأرض، يـوضـع عليـهـا بشكل عرضي جذع شجرة، تعلق عليه بشكل رأسي عند ربع طـوله من جـهـة الطرف الغليظ سلة طويلة. وعند طرف الذراع الأطول لهذه الرافعة يعلق حبل تتدلى منه سلة مستديرة من سعف النخيل، أو حقيبة من الجلد، أما في الذراع الأقصر للرافعة فتمرر حلقات من الطين مهمتها أن تقوم بدور المقاومة. ويقوم الفلاحون الموجودون في الطابق الأكثر انخفاضا أي عند مستوى النهر بنزح المياه ثم يرفعونها إلى الطـابق الأول، وتـؤخـذ الميـاه مرة أخرى وبنفس الطريقة لترفع من الطـابق الأول إلى الطـابق الثاني، ثم من الثاني إلى الثالث. وهكذا حتى تصل إلى أعلى حيث تصب في خزان توزع منه على قنوات الري .

أمـا طريقة الري بالمنطال[1] فهي تتم عن طريق فلاحين نصف جالسين على كومة من الطين المرتفع على شاطئ النهر، ويمسك كل منهما بكل يد من يديه حبلا تتدلى منه قفة أو نوع من الجردل المصنوع من سعف النخيل، ويقذفان بهذه الجرادل في النهر حيث

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة٦ ،شكل٢ ، المجلد الثاني، الدولة الحديثة .

تمتلىء وعن طريق الحركة التى يحدثانها بارتدادهما إلى الخلف ينتزعان الجرادل من النهر ويفرغانها فى خزان صغير فى مستوى جداول الرى .

أما الماكينة المستخدمة فى الرى فهى العجلة "الدولاب" ذات الثقوب المجوفة "الساقية" . وهى تستخدم فى الأماكن التى لا تصلها مياه النيل بشكل طبيعى، وعندما لايتجاوز ارتفاع الأرض المزروعة عن منسوب المياه ٢.٥٠ - ٣ أمتار فقط. وهذه الماكينة عبارة عن شجرة موضوعة بشكل أفقى(١) أقيمت عليها عند منتصفها وبشكل رأسى، العجلة ذات الثقوب، وتثبت محاورها فى الجدران الجانبية لخزان مياه صغير، تصل إليه المياه مباشرة أو تتسرب إليه من النهر. وهناك عجلة مسننة، تلتصق بالعجلة ذات الثقوب المجوفة، تشتبك بعجلة أخرى أفقية مسننة هى الأخرى، ومثبتة على شجرة أفقية، وتتشعب هذه الشجرة فى جزئها الأعلى لتقوم بدور نقطة الارتكاز لذراع الرافعة الطويل، الذى يعلق فيه ويدور به حصان أو جمل أو بقرة أو جاموسة . وبفعل الحركة تقوم العجلة ذات الثقوب المجوفة بنزح مياه الخزان عن طريق

---

(١) انظر الفنون والحرف، اللوحة ٣ ، نفس المجلد .

الثقوب التى نفذت عند سطحها فتمتلئ الفراغات بالماء، ثم تخرج المياه التى نزحت بفعل حركة العجلة وعن طريق نفس الثقوب، لتسقط من جديد فى خزان صغير تذهب فيه بعد ذلك إلى قنوات الرى المعدة. ومن نافلة القول أن نذكر أن طول قطر العجلة ذات التجاويف يحدد بالعمق الذى توجد فيه المياه فى المكان الذى يراد إقامة الماكينة فيه. ولكن من المفيد أن نلفت النظر هنا، إلى أنه من الممكن أن يرتب الأمر، بحيث يرفع أو يخفض مدار محور العجلة المسننة التى تلتصق بها العجلة ذات التجاويف، فهى مصممة بدقة بالغة، لكن هذا الأمر لا ينطبق على العجلات المسننة «الأفقية» التى تحدث الحركة.

وحيث إن ارتفاع منسوب المياه فى آبار رشيد لا يعانى مما يعانيه فى أى مكان آخر فى مصر أثناء ارتفاع أو انخفاض النيل، وحيث إن ارتفاع أو انخفاض النهر هنا أقل منه فى المناطق المرتفعة فى مصر، لدرجة لا يمكن معها عقد مقارنة، لذلك نرى أن استخدام العجلة «الساقية» ذات التجاويف يقتصر على هذه المنطقة «رشيد»، لكنها فى نفس الوقت تستخدم فى دمياط وهى التى تعيش فى نفس ظروف رشيد فيما يختص بمنسوب

النيل. أما فى المناطق الأخرى فقد تعود الناس استخدام الطريقة الثالثة فى الرى والتى أشرنا اليها.

أما العجلة ذات القواديس[1] التى تستخدم فى ضواحى رشيد[2] فهى - شأنها فى ذلك نفس شأنها فى كل أنحاء مصر- عبارة عن حبل بالغ الطول يمر على عجلة تتحرك بنفس طريقة العجلة ذات التجاويف ، ويمكن للمرء أن يطيل أو يقصر من تدلى الحبل حسب منسوب مياه النهر، وتعلق القواديس فى هذا الحبل، ويمكن زيادة أو إنقاص عددها حسب القوة المحركة التى يعتمد عليها وحسب المقاومة التى تبديها الحركة .

وقد واتتنا الفرصة أكثر من مرة أثناء جولاتنا إلى حصن أبى منضور أن نقوم بزيارة طاحونة يضرب فيها الأرز ، وهذه الماكينة[3] عبارة عن مدقات دائرية من الحديد المجوف مثبتة فى طرف روافع متحركة فى خط رأسى، وتحركها شجرة أفقية مزودة بمساكة مزلاج تمارس ضغطا على ذراع الرافعة الأصغر.

---

(١) انظر الفنون والحرف، اللوحتين ، ٤ ، ٥ نفس المجلد، مع شرح هاتين اللوحتين .

(٢) انظر اللوحة ٧٨ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول.

(٣) انظر الفنون والحرف، اللوحة ٩، الأشكال ٥ ،٦، ٧ مع شرح هذه اللوحة .

وتتحرك الشجرة نفسها بفعل عجلة مسننة شبيهة بتلك التى سبق أن بيناها. والخيل والأبقار والجمال هى القوة المستخدمة فى ذلك. ويوضع الأرز فى ثقوب متصلة بالمدقات لكى يتم ضربه، وثمة عامل يجلس فى مقدمة الماكينة يلملم تحت هذه المدقات الأرز الذى يتناثر قبل إتمام ضربه[1]. وقد زرنا فى رشيد طاحونتين شبيهتين بتلك التى انتهيت من وصفها.

وفى أثناء إقامتنا فى رشيد أيضاً جمعت رسومات لآلة لدرس الحب تعرف فى هذه البلاد باسم "النورج"، ويمكن أن نرى فى اللوحة التاسعة من الفنون والحرف تصميم وتركيب النورج، وقد قدم المرحوم المسيو كونتيه صورة لماكينة مشابهة فى اللوحة الثامنة الشكل رقم ٢ فى نفس مجلد الفنون والحرف. ويكفى مجرد النظر إلى الصورة، للحصول على فكرة دقيقة عن هذه الماكينة التى تضم فى جزئها الأسفل عجلات خشبية مثبت عليها بشكل رأسى عند المحور، سكاكين دائرية من الحديد، ويجر الآلة ثور بقر يقوده طفل، وبمرور النورج وتوالى مروره فوق حزم القمح

---

(١) لمزيد من التفاصيل ، انظر دراسة المسيو جيرارGirard ، عن الزراعة والصناعة والتجارة فى مصر (المجلد الرابع من الترجمة العربية). «المترجم» .

يتكسر القش وتنفصل عنه الحبوب. ولكى يعزل كل منهما عن الآخر «الحب والتبن» يرفع التبن بمذراة فيبقى الحب، وتختتم العملية بتنظيفه عن طريق تعريضه للهواء لتحمل الريح الأجزاء الخفيفة، وبهذه الطريقة تتم عملية التذرية.

وتوجد فى رشيد كثير من طواحين القمح، ويضم كل بيت فى العادة واحدة منها، وليست ثمة اختلافات بين هذه الطواحين فيما عدا أن طواحين الأغنياء تدار بواسطة الحيوانات بينما تدار طواحين الفقراء بواسطة سواعد الرجال، وتتم الحركة فى طاحونة الميسورين بأيسر السبل[1]. وهذه الطاحونة عبارة عن عجلة موضوعة بشكل أفقى ومعشق بها ذراع، ويخترق كلا من شقى الرحى محور الذراع، وشقة الرحى العليا أصغر من الشقة السفلى، وتتحرك الشقة العليا بفعل القوة المحركة، وتوضع الاثنتان فى وضع مائل حتى لايتمكن الدقيق عند خروجه، من النفاذ إلا عن طريق فتحة فى الشقة السفلى للرحى، ويستقبل الدقيق فى سلة أو قفة.

أما الطواحين اليدوية فتتكون من شقين فى الغالب من

---

(١) انظر الفنون والحرف، اللوحة ٩ وشرحها، الأشكال ٨ ، ٩ ، ١٠ .

الجرانيت المأخوذ من أعمدة المنشآت القديمة. وقد قطع الشق الثابت للرحى بطريقة تجعل فى مركزه نوعا من اسطوانة صغيرة ناتئة تدخل فى ثقب منفذ عند مركز الرحى المتحركة، وحول هذه الاسطوانة الناتئة تحدث تلك الحركة الدائرية.

الفصل الرابع

البيوت فى رشيد ، عمارتها وشكلها الخارجى

شوارع مدينة رشيد ضيقة ومتعرجة ، وهى فى معظم الأحيان مليئة بالنفايات، كما أنها ليست مرصوفة ، لكن أسواقها أكثر اتساعا وأكثر تهوية من أسواق الأسكندرية . وثمة مشهد يبدو بالغ الغرابة، هو ذلك العدد الهائل من الكلاب الضالة التى يقابلها المرء فى الشوارع، وبخاصة فى ميناء رشيد، وهو نفس المشهد الذى تلقاه فى كل مدن مصر، لكنه أصابنى فى رشيد بما يشبه الصدمة لأننى رأيته هناك للمرة الأولى وكونت عنه انطباعى، والكلاب هناك من النوع المسمى الكلاب الذئبية ، ويبدو أنه لا الأهالى بل ولا السلطة ، يشغلون أنفسهم بأمر إطعام هذه الكلاب، على الرغم من أن هذه الحيوانات تقدم إليهم خدمات جليلة وبخاصة فى حراسة الميناء. وفى أثناء الليل تطلق هذه

الكلاب عواءها المرعب، ويبدو أن سكان رشيد عندما يعودون إلى بيوتهم بعد انتهاء اليوم لا يلقون كبير بال لهذه الضجة.

وإذا مضى المرء نحو الأحياء المتطرفة من المدينة فسيقابل هناك عدداً كبيراً من الناس يقعون بلا حراك بينمامبسم الغليون فى فمهم. وقد شاهدنا كذلك كثيراً من الأطفال والنساء، ولم يكن هؤلاء النسوة سوى نساء من الشعب، يرتدين قمصاناً زرقاء غير نظيفة ومشقوقة من الأمام فى جزئها الأعلى ، مما يتيح رؤية صدورهن مدلاة ، وثمة حجاب قذر مثل ثيابهن يغطى كل الوجه فيما عدا العينين.

وللعمى ضحايا كثيرون فى رشيد ، ويبدو أنه أكثر شيوعا بين النساء عنه بين الرجال، وثمة مشهد يلفت بشدة انتباه الأجانب القادمين إلى رشيد، هو ضعف بنية أطفالها، وهم يمشون وحدهم فى وقت مبكر لكن أطرافهم هشة ودقيقة، وقد يعود السبب فى ذلك جزئياً إلى أن المرأة ترعى عدة أطفال فى نفس الوقت. وتحمل الأمهات هؤلاء الأطفال - متباعدى الساقين - على

أكتافهن. وحيث تعوز هؤلاء الأطفال القوة التى تكفى لاحتفاظهم باستقامة أجسامهم فإنهم ينكفئون منحنين. وعندما لا يكون المرء متعودا على مثل هذا المشهد فإنه يرتجف خوفاً من أن يصيب هؤلاء الأطفال حادث ما.

وفى المساء، عندما ينادى المؤذنون الناس من فوق مآذنهم للصلاة، فليس ثمة ما هو أكثر روعة من منظر مدينة رشيد، فالناس يتوجهون جموعاً وفى صمت إلى المسجد، ويذهب العدد الأكبر من هؤلاء، ممن لا يملكون وسيلة للوضوء فى بيوتهم أو جنانينهم، إلى شط النيل لأداء هذا الواجب، فيغسلون لحيتهم ثم يؤدون صلاتهم متخذين قبلتهم الكعبة المقدسة، ويعنى الذين يحوزون سجاجيد منهم - وهؤلاء عدد بالغ الضآلة - ببسطها على الأرض لأداء هذه الفريضة الدينية، أما أولئك الذين لا يملكون سجادات فيستعيضون عنها بالعمامة التى تغطى رأسهم.

وما إن ينقضى وقت الصلاة، أى ما إن يقدم الليل، حتى يعود السكان إلى بيوتهم. وبعد ذلك لا يمكنك أن تقابل فى الشارع فرداً واحداً.

وتضئ المدينة أثناء الليل فوانيس معلقة فوق مداخل البيوت.

وقد زرت أحياء من رشيد كانت مهجورة تماماً فلم تعد سوى «مقالب» للقمامة والنفايات. وقد اعتاد السكان ألا يجروا أية ترميمات لبيوتهم، وهم يهجرونها ما ان يبدأ يتساقط منها بعض الأتربة «أمارات البلى» ليبتنوا لأنفسهم مساكن جديدة فى مكان قريب أو فى حى آخر من أحياء المدينة. وفى المنطقة التى تجاور الصحراء من مدينة رشيد، ثمة بيوت خربة قد غزتها الرمال بالفعل. وكنا نرى فى معظم الأحيان فى هذه الأحياء المهجورة نساء من الشعب منهمكات فى إعداد روث الماشية فيشكلن منه أقراصاً صغيرة [1] مستديرة الشكل وغير سميكة، ويخلطنها بالقش المهروس ثم يعرضنها للشمس بوضعها على الأرض أو بلصقها فى غالب الأحيان على جدران المساكن. وتكاد هذه الأقراص تكون هى الوقود الوحيد الذى يستخدمه السكان للحصول على النيران اللازمة للطهى. ومن المعروف أن المصريين يستخرجون من السناج ملح النوشادر.

---

(١) انظر الفنون والحرف، اللوحة ٢٨، الشكل رقم ١، وكذلك شرح هذه اللوحة.

ويقوم على حراسة بيوت الأثرياء نوبيون سود البشرة، وهم معروفون بأمانتهم وإخلاصهم الذى يصمد لكل اختبار، كما يعهد إلى هؤلاء كذلك بحراسة أخشاب الوقود وأخشاب البناء التى تمتلئ بها الميناء.

وأثناء عبورنا المدينة، مررنا عدة مرات بمدارس عامة، ويمكن للمرء أن يسمع ضجيج هذه المدارس بعد أن يكون قد ابتعد عنها بمسافة طويلة، وأطفالها عند قراءتهم، أو عندما يحفظون عن ظهر قلب، يهتزون إلى الأمام وإلى الخلف ويغنون ما يحفظونه أو ما يقرأونه، وينتج عن ذلك مشهد بالغ الغرابة.. والمدارس فى رشيد كثيرة العدد، وهو ما يتناقض كثيراً مع الجهالة التى كان من المعتاد افتراضها فى سكان مصر.

وكل بيوت رشيد من طوب ضارب إلى الحمرة، غامق اللون، ويعود ذلك إلى درجة احتراق هذا الطوب، وقد لاحظنا أن البيوت فى الأسكندرية مبنية كلها من الحجر الجيرى وملاطها من الجير والرمل، وتتآكل الحجارة فى هذه البيوت بفعل الطقس البحرى الذى يسود هذه المدينة بينمايبقى الملاط سليما، ويختلف الأمر

عن ذلك فى رشيد اختلافا بيناً، فالطوب فى رشيد يقاوم تقلبات الهواء، لكن الأسمنت الذى يثبته هو الذى يتساقط.

وفى أثناء جولاتنا بالمدينة لاحظنا وجود بيوت بدا لنا أنها من الداخل أفضل من بيوت الأسكندرية. وفى رشيد، كما هو الحال فى الأسكندرية، تزين الأعمدة البيوت بشكل بالغ الغرابة، وهذه الأعمدة مأخوذة من المبانى الأثرية، ويلاحظ فقدان الذوق بالمثل فى استخدامها، حيث توضع قمة العمود فى مكان قاعدته أو يحدث العكس.

وقد جعلتنا جولاتنا المتعددة هذه فى وضع يسمح لنا بتكوين فكرة عن داخل بيوت بعض الأثرياء، وقد تظنن فى البداية أنها تستخدم كمأوى لحيوانات دنسة وليست كمساكن لآدميين . فالحجرات معتمة سيئة الإضاءة، والجدران عارية من أية زينة، مغطاة بالأتربة القذرة.. ذلك هو مشهد البيوت المعتمة التى تشغلها الطبقة الميسورة بعض الشئ فى رشيد؛ وسوء النظافة هناك أمر عام لحد يمتد معه إلى المبانى العامة، وفى هذا الخصوص فان المساجد ليست بأحسن حالا من البيوت.

وفى مصر، يطلق أحياناً كنوع من التباهى، اسم القصر على البيوت بالغة التواضع سواء فى اتساعها أو فى مبناها، لكن هذه البيوت تكتسب أهميتها من أهمية أولئك الذين يقطنونها. وفى أثناء عيد ١٤يولية الذى احتفلت به الحامية فى رشيد جاء المفتى إلى الحى الرئيسى ليقسم بأنه لن يقوم مطلقاً بفعل أى شئ ضد الجيش الفرنسى. وتلقى من الجنرال مينو تأكيداً بأن ممتلكات السكان سوف تحترم. وبعد الحفل عاد المفتى إلى قصره الذى لم يكن مظهره ليختلف فى شئ عن مظهر بيوت فلاحينا فى فرنسا.

وقد حاولنا أن نأخذ فكرة دقيقة عن الجامع الرئيسى فى رشيد، أفضل من تلك الفكرة التى تسمح بتكوينها انطباعاتنا عن البلد، حيث لم يكن مخولا لنا على الإطلاق دخول المساجد: ترتفع مئذنة الجامع برشاقة وسط الفضاء، وهى تتكون من أربعة طوابق، والجامع بالغ الاتساع لكنه فى تقسيمه لا يتبع شكلا منتظما، وثمة صفوف من أعمدة صغيرة إلى جانب أعمدة ضخمة تزينه من الداخل، وكل صحن الجامع مغطى بالحصر. وفى بناء ملحق بالجامع توجد أماكن لقضاء الحاجة وأحواض يتوضأ فيها

المتعبدون المسلمون قبل أداء الصلاة، وثمة أحواض أخرى مخصصة لنفس الغرض، والماء الذى يملؤها ليس شديد النظافة ولا يبدو مطلقاً أنه يتجدد فى معظم الأحيان، ونوافذ الجامع مغلقة بشبكات حديدية جميلة، مصنوعة بشكل متقن، وهى مجلوبة من القسطنطينية.

وتكاد تكون كل بيوت رشيد قد بنيت على نفس النمط، ومن الطوب كما سبق أن ذكرنا، وكلها باستثناء فروق ضئيلة، لها نفس المظهر الخارجي. وقد حرصنا على أن نقوم بعمل عدة رسومات لواحد من أهم بيوت المدينة وأحسنها موقعاً، وكانت إحدى واجهات هذا البيت تطل على النيل، وقد قيل لنا أن هذا البيت كان يخص أحد البكوات. وكانت واجهة البيت المطلة على الشارع الرئيسى فى رشيد تشكل فى الطابق الأرضى باب مدخل كبير وكذلك بابين آخرين أقل حجما[1]، وثمة أربعة أعمدة ذات ارتفاعات ومقاسات غير متساوية مقامة على قواعد تشكل نوعاً من الزينة شديد الغرابة، ومدخل الباب

(١) انظر اللوحة رقم٨٢، الشكل ٥، الدولة الحديثة، المجلد الأول.

الرئيسي[1] مبنى كله وكذا الواجهة من طوب شديد الانتظام، وثمة قطع من الخشب تختلط بهذا البناء، تظهر أحياناً بالعرض وأحياناً لا يظهر منها إلا أطرافها، وفى بعض الأحيان تزدان هذه القطع الخشبية بالرسوم والحفر. وفى الجزء الأدنى من الباب الذى بارتفاع الدعامة توجد أعمدة صغيرة من الخشب المضلع متصلة بزوايا البناء.

والقوس الذى ينتهى به الباب الكبير هو هنا قوس دائرى، وفى بعض الأحيان يكون هذا القوس على شكل نصف دائرة بل وأحياناً على شكل قوس على النمط القوطى. وتغلق النافذة الوحيدة أو الشباك الوحيد الموجود فى الطابق الأرضى شبكة من الحديد[2]. ويقتسم بقية الارتفاع ثلاثة طوابق تتبين معالمها عن طريق كمرات خشبية تظهرأطرافها من الخارج لتشكل نوعاً من الزينة. وهذه الطوابق الناتئة عالية، وتبرز عن واجهة الدور

---

(١) نفس اللوحة، شكل ١٠ .

(٢) تقفل النوافذ السفلى للبيوت فى رشيد عادة بواسطة أسياخ حديدية متينة ومتقنة، وهـذه تصنع فى القسطنطينية، وقد سبق أن أشرنا إلى مثيل لها عند حديثنا عن جامع رشيد الكبير.

الأرضى بقدمين أو ثلاثة أقدام. ويتكون هذا النتوء من ألواح خشبية رئيسية تتجاوز البناء وتسند أطرافها ركائز أو دعامات السقف، ويغطى الجميع بألواح خشبية تتجمع إلى بعضها البعض لتشكل فى مجموعها سطحاً أملس.

وينفذ الضوء إلى الأدوار العليا عن طريق نوافذ كبيرة تغلقها شبكات من الخشب مربعاتها كبيرة، وتوجد فوقها فتحة أصغر، تغلقها هى الأخرى شبكة صغيرة المربعات. ولبعض الشبابيك شبكات «مشربيات» أكثر أناقة وتوضع ناتئة فوق الواجهة العارية، وفى هذه الواجهة فتحات لكى تسمح بتهوية الحجرات، وثمة فتحات كذلك فى الجوانب لكى تجعل من الميسور الرؤية عن بعد فى الشوارع، حتى ترضى فضول النساء اللاتى يستطعن بهذه الطريقة أن يرين دون أن يراهن أحد. وتعطى هذه المشربيات الناتئة كذلك الفرصة لوضع قلل المياه لترطيبها، وهذه القلل عبارة عن آنية صنعت فى صعيد مصر، من نوع من الصلصال المائل للبياض والمعجون جيداً، وهى تحرق فى النار نصف حريق وهذا ما يحتفظ لها بطبيعة مسامية تدين لها هذه

القلل بخاصية التبريد التى تتميز بها. وأشكال[1] هذه القازات «القلل» لا ينقصها الجمال. ويملأ الناس هذه القلل ويعرضونها لتيار الهواء فتتبخر المياه التى تتسرب من خلال المسام مما يتسبب فى برودة الماء الموجود فى داخل القلة. وتنخفض درجة حرارة مياه القلة على الدوام حوالى ٤: ٥ درجات.

وثمة طابق رابع يرتفع على جزء من المنزل الذى نحن بصدده ويشكل نوعاً من المقاصير ، التى تكون فى نفس مستوى سقف شرفة المبنى، ومن هذه الشرفات تستطيع النسوة أن يروحن عن أنفسهن دون أن يراهن أحد. ومع ذلك فمن الممكن أن يراهن المؤذنون الذين يدعون الناس للصلاة من أعلى المآذن، لكن الناس قد احتاطوا لهذه الصورة حيطة تتفق مع صرامة التقاليد الإسلامية، إذ لم يكونوا يختارون للقيام بعمل المؤذنين إلا رجالاً من العميان.

وليس لواجهة البيت من جهة النيل[2] سوى طابق واحد،

---

(١) انظرالآنية والأثاث والأدوات ، اللوحة FF الدولة الحديثة، المجلد ٢، ريدوتيه Redoute.

(٢) انظر اللوحة ٨٢ ، شكل ٢ ، المجلد الأول، الدولة الحديثة .

ونتيجة لذلك فإن التعقيد هنا أقل، فثمة ثلاثة أبواب، أحدها رئيسى يؤدى إلى الطابق الأرضى الذى ينفذ إليه الضوء عن طريق نوافذ صغيرة «مشربيات» ذات مربعات كبيرة، وثمة عمودان فى الزوايا يحملان ركائز ناتئة بعض الشئ فوق الجدار العارى، وفى واحدة من هذه الزوايا يوجد سبيل يحتوى على جرار مليئة بالمياه وإناء للاغتراف منها، وهى بذلك تقدم للمارة الوسيلة لرى ظمئهم. ويعتنى صاحب البيت بالجرار على الدوام فيأمر بملئها بالمياه، وفى بلد بمثل هذه الدرجة من الحرارة يمكنك أن تتصور قيمة مثل هذه المنشآت، لذلك فهى كثيرة العدد. وثمة بيوت تقدم المياه للمارة بطريقة مختلفة، إذ يوجد فى داخل هذه البيوت قادوس «زير» يعنى به على الدوام ويملأ بالمياه ويوضع بالقرب من الجدار الخارجى، وثمة ماصة ينغمس فرعها الأطول فى القادوس أما فرعها الأقصر فيخترق الحائط لينتهى بصنبور يأتى المارة ليضعوا عليه أفواههم، ويمتصوا المياه حتى يرتووا. وفى المساجد وبيوت الأثرياء يخترق هذا الصنبور نضدا من الرخام نقشت عليها آيات من القرآن.

ويتكون الطابق الوحيد الكائن فى الواجهة المطلة على النيل من ثلاثة أفنية أمامية تفصلها ردهتان، وينير كل واحد من هذه الأفنية نوافذ تغطيها مشربيات ذات مربعات كبيرة، توجد فوقها نوافذ أصغر تحيط بها هى الأخرى مشربيات. وينتهى أعلى البيت بشرفة كسيت أرضيتها من ملاط شديد البياض، وتطل أطراف دعائمها إلى الخارج وتشكل كما سبق أن لفتنا الأنظار نوعاً من الزينة.

أما الواجهة الجانبية[1] لهذا المسكن فأقسامها مماثلة لتلك التى انتهينا من وصفها فيما عدا أنها فى جزء منها تزيد طابقا واحداً عما سبق وصفه، ويمكن أن نلاحظ فيها مساقط نور صغيرة وكثيرة العدد لإضاءة حجرات الطابق الأرضى. وعلى العموم فإن الطابق الأرضى كله مخصص لاسطبلات الخيول والجمال، ولمخازن الأعلاف، ولسروج الخيل التى تودع فى حجرات منفصلة، وللمطبخ والكرار، وللمكاتب، ولرحى القمح. كما

---

(١) انظر اللوحة ٨٢، الشكل ٤، المجلد الأول، الدولة الحديثة .

تخصص بعض حجراته أيضاً لخدم البيت ولغيرهم.

ولن تكون فكرتنا عن داخل بيوت رشيد دقيقة إذا ما تصورنا أن ألواح الأرضيات الخشبية لها نفس المستوى، وأن الإنسان يمكنه أن ينتقل بسهولة من حجرة لأخرى، إذ ينبغى على المرء - على العكس من ذلك - أن يصعد أو يهبط سلمة وأحيانا اثنتين أو ثلاثا لكى ينتقل من جناح لآخر. وليس ثمة سبب ظاهرى على الأقل لمثل هذا الوضع، وإلا لأمكن تفادى هذا الوضع الغريب والذى لا يمكن أن نجد تفسيراً له إلا فى عادات أهل البلاد.

وتكفى التفاصيل التى ذكرناها للتو لكى تعطى فكرة عن ـارة بيوت أثرياء رشيد، ويمكن لنا أن نحصل على مزيد من ـفكار التى قدمناها إذا ما اطلعنا على الرسوم الموضحة فى اللوحة رقم ٨٢ الشكلين ١، ٢ واللوحة ١٠٢ الأشكال ٨، ٩، ١٠.

ومن خواص نوافذ البيوت التى يوضح الشكل رقم٢ مقدار ارتفاعها أنها تغلق بمصراعين أيضاً بخلاف المشربية. وينبغى أن نضيف هنا أن بيوت الأثرياء فى رشيد تغلق فتحاتها من الداخل فى الغالب بواسطة نوافذ زجاجية، أما غالبية البيوت الأخرى فلا

يوجد بها مثل هذه النوافذ الزجاجية. وهكذا ينفذ الهواء الخارجى بحرية إلى داخل الحجرات.

وعلى العموم فإن شرفات البيوت فى رشيد مائلة، ولها مزاريب تسهل تصريف مياه الأمطار التى تسقط على رشيد بوفرة وغزارة فى بعض الأحيان فى فصل الشتاء.

وتختلف الديكورات الداخلية للبيوت كثيراً تبعاً لاستخدام الحجرات ودرجة ثراء وطبقة المالك. فالحجرات ترصف بمربعات من الطين المحروق، أما الجزء الأول من حجرات الاستقبال الفخمة وكذلك دورات مياه السادة وحجرات الحمام، فهى مرصوفة بالرخام.

ويكتفى بتغطية الجدران بطلاء أملس للغاية ناصع البياض، وتنقسم كل حجرة من أعلاها إلى قسمين متساويين على وجه التقريب، عن طريق إفريز من خشب دقيق للغاية لكنه بارز ويدور بدائر الحجرة، ويمتلئ الجزء الأسفل من الحجرة بدواليب كبيرة، تشكل زخارفها المنفذة بطرق مختلفة نوعا من الزينة. وثمة دواليب أخرى ذات أحجام متنوعة، وهناك كذلك كثير من الارتدادات

الصغيرة المزدانة بأشغال خشبية تستكمل نظام الديكور لمختلف الحجرات. أما الأثاث فعبارة عن أرائك موزعة بدائر الحجرة تشكل مقاعد منخفضة، واسعة ، ومريحة، وتتكون هذه المقاعد من حشيات ومساند كبيرة من القطن، وتبسط هذه الحشيات على مقاعد يبلغ ارتفاعها ١٥ – ١٨ سم، وهى إما مصنوعة من ألواح خشبية أو هى مجرد أقفاص من الجريد، وتغطى هذه الحشيات والمساند أقمشة تتفاوت قيمتها ونوعها بحسب مكانة ودرجة ثراء المالك. وتخصص أثمن هذه الأقمشة لتغطية أرائك الشرفات أو النوافذ الأمامية التى تحدثنا عنها من قبل. وهناك تستريح لنسوة فى معظم الأحيان ويستنشقن الهواء المنعش الذى لا يتوفر فى الأنحاء الأخرى من حجراتهن.

ولا يمكن لك أن تجد فراشاً فى أى مكان بالبيت أثناء النهار. وينام الرجال والنساء على هذه الأرائك أو على مفرش يبسطونه وسط الحجرة، وفى بعض الأحيان لا يكون الفراش سوى حشية بسيطة مغطاة بسجادة، وثمة ناموسية من الحرير الشفاف أو الكريب تحمى من حشرات الفراش أو من الناموس، ولكن فى

أثناء النهار تطوى كل هذه الأدوات وتوضع فى صناديق.

وينام الكثيرمن الناس رجالا ونساء دون أن يخلعوا ملابسهم، كما ينام الخدم بكامل ملابسهم ولكن على حصر بسيطة.

وقد أتيحت لنا فرصة الدخول إلى بيت واحد من أغنى رجال رشيد، كان قد لاذ بالفرار عند اقتراب الجيش الفرنسى. وينقسم هذا البيت إلى جناحين أساسيين : جناح المالك، وجناح الحريم، وفى جناح المالك كانت الشبابيك مغلقة بمشربيات خشبية كبيرة المربعات، أما هذه المربعات فى جناح الحريم فكانت أصغر، وليس ثمة أى اتصال بين الجناحين إلا عن طريق سلم صغير وكذلك عن طريق كوة دائرية تستخدم فى إيصال الطعام إلى الحريم. وفى كلا الجناحين كانت الغرفة الرئيسية عبارة عن حجرة واسعة مزينة بطريقة مماثلة لتلك التى سبق لنا أن عرضناها، مع اختلاف واحد، هو أنه توجد أعلى الدواليب فى جناح الحريم نوع من المقصورات التى تحيط بها قضبان، بحيث يمكن الاستنتاج بأن النساء كن معتادات على الجلوس فيها. ويضم هذا البيت مطابخ وحمامات وأفراناً وشرفات، وعموما كل ما يمكن أن يضمه

مسكن واحد من أثرياء الخاصة. أما المراحيض فمغطاة بمربعات كبيرة من الرخام، حفرت بها فتحات طويلة وضيقة.

وقد سبق لنا القول بأن مختلف الطوابق فى بيوت رشيد تكون إما بارزة أو خارجة بعضها فوق بعض، وينتج عن ذلك أن البيوت بعد ارتفاع الطابق الأرضى تصبح متقاربة لحد كاف من بعضها البعض حتى تكاد تتلامس الشرفات بطريقة لا يعود يفصل بينها إلا مسافات جد ضئيلة، ويؤدى هذا الوضع إلى تغطية الشوارع المخصصة للمحلات، أو الأسواق العامة، بشكل شبه تام بحيث تجعلها فى حمى من أشعة الشمس.

ولكل بيوت رشيد فيما عدا بيوت الأثرياء من أهلها سلم خارجي مبنى فى معظم الأحيان من الحجارة لكنها محاطة بفاصل كبير - بدلا من الدرابزين- وذلك لحجب رؤية النساء عند خروجهن من البيت أو دخولهن إليه.

وقد ترددنا كثيراً على الأسواق العامة فى رشيد، ولفت انتباهنا هناك بشدة ذلك الصمت الذى يخيم على المكان والذى يشكل تناقضاً لافتاً للنظر مع الضوضاء التى تنبعث من

أسواقنا، ذلك أن أهل هذه المدينة يتكلمون قليلاً، ولهجتهم على الدوام جادة وقورة، لكن حديثهم لا يمنعهم من تدخين الغليون أثناء الكلام، وهم يجلسون أمام محلاتهم بلا حراك، وكأنهم مجرد علامات قياس.

وتجار رشيد -كما بدوا لنا- متشككون، ويخشون على الدوام أن يخدعوا من قبل الغير، لذا فهم لا يسلمون البضائع التى اشتريت منهم إلا إذا حصلوا الثمن مقدماً.

وفى الأسواق أكثر من أى مكان غيرها تواتيك الفرصة لملاحظة عادات السكان فى بلد ما. ويبدو سكان رشيد للوهلة الأولى مختلفين لحد تستطيع معه أن تتعرف بسهولة على التركى أو القبطى أو الاسكندرانى.... ويعرف الأروام على وجه الخصوص ببشرتهم البيضاء وذقونهم الحليقة.

ومقاهى رشيد -كما هو الحال فى الأسكندرية -أماكن بالغة القذارة لا يمكن لك أن تقترب منها دون أن تشعر بالاشمئزاز. وهى عبارة عن صالة واسعة ترتفع بدائر جدرانها، وفى وسطها منصات مبنية «مصاطب» تغطى بالحصير. وعلى هذه المنصات

يأتى الناس ليشربوا القهوة ويدخنوا الغليون الذى لا يفارقهم مطلقاً. وينعسون أو يستمعون إلى إنشادات الشاعر المرتجل أو إلى حكايات يرويها حاك لا يمل الحكى ويستمع الناس إليه على الدوام بلذة متجددة. وقد لاحظنا من بين هذه المبانى مقهى يستحق عنده وقفة خاصة بسبب نظافته وجمال موقعه.

يقع هذا المقهى عند الميناء بالقرب من شاطئ النيل. وطول مبناه [1] يبلغ على وجه التقريب ضعف عرضه، وهو ينقسم من الداخل إلى قسمين، ويوجد فى وسطه ممر يؤدى إلى بابين خارجيين موجودين على واجهتيه، ويقود الباب الرئيسى إلى النهر. ويصل الضوء إليه عن طريق شباك مزدوج يعلوه قوس على النمط القوطى تستند قاعدته على ثلاثة أعمدة خشبية، وفوق هذين الشباكين يوجد شباك آخر أصغر لكنه مستطيل الشكل، وترتفع فى وسط المبنى منصتان يوجد حولهما أنواع من المقاعد المبنية بطريقة مشابهة وتؤدى لنفس الغرض. وسقف المبنى ناتئ ليحمى من لهيب الشمس، لكن أصحاب المقهى يحتاطون للأمر زيادة على

(١) انظر اللوحة ٨٢، الشكلين ٦ و٧، المجلد الأول، الدولة الحديثة.

ذلك بشكل أفضل عن طريق سقيفة من البغدادلى تدورحول المبنى مشكلة نوعاً من العرائش تمتد فوقه تكعيبات العنب المزروعة أمام الواجهة فتغلفه من كل جانب بأغصانها الطويلة المرنة. وأمام هذه العرائش تأتى العوالم - أو الراقصات العموميات - والموسيقيون والمنشدون والشعراء ليجذبوا انتباه شاربى القهوة لاستخلاص بعض قطع النقود منهم.

ويندمج المترددون على المقهى فى لعب أدوار شطرنج أو أدوار منقلة [1] وهؤلاء المترددون أناس ينتمون للطبقة المتوسطة، ذلك أن الأثرياء يعدون قهوتهم فى بيوتهم ولايترددون مطلقاً على هذه الأماكن .

بقى علينا الآن أن نتحدث عن بعض المبانى التى أقيمت فى رشيد بقدر لا بأس به من الفخامة، وتلك هى الوكالات «وكالة»

(١) تتكون المنقلة من لوحتين ، بكل واحدة منهما ستة ثقوب، ويلعب الدور شخصان، وفى البداية يضع كل لاعب فى الثقوب التى أمامه ٦ قطع من الزلط أو الحجارة ويبدأ أحدهما اللعب بأن يأخذ الزلطات من ثقوب يختارها ليضعها بعد ذلك واحدة واحدة فى الثقوب، بادئاً من اليمين، ومواصلاً بنفس الطريقة حتى ينتهى مما معه من زلط، وإذا كان رقم الثقب الذى وضع فيه زلطته الأخيرة زوجياً: ٢، ٤، ٦ تكون هذه الزلطة له، ومعها كل الزلطات الموجودة فى الثقوب المجاورة وهو يتجه إلى الخلف وعندما لا تتبقى أية زلطة فى الثقوب، يبدأ اللاعبان العد، ويكسب الدور من يكون منهما قد حصل على أكبر عدد من الزلطات.

انظر : Voyage en Arabie Par Niebuhr tome I, Planche XXV et, p.139

التي يجد الناس فيها كل أنواع البضائع . ويبلغ طول المبنى من هذه الوكالات أربع أو خمس مرات قدر عرضها ، وهي تضم فناء توجد حوله أروقة تدعمها أعمدة ، وتعلو هذه الأعمدة أقواس على النمط القوطي. وتوجد مداخل المحلات داخل هذه الأروقة، وينفذ الضوء إلى هذه المحلات عن طريق ثقوب تعلو الأبواب . ونجد في الطابق الأول نفس التقسيم الذي وجدناه في الطابق الأرضي، وينير الدهليز الذي يحل محل الرواق في الطابق الأرضي والذي ؤدي إلى مداخل المحلات عدد كبير من النوافذ، كما هو الحال ي الأروقة ،مع فارق بسيط هو أن نوافذ الدهليز تعلوها فتحات مربعة صغيرة . ونفس الأمر بخصوص الطابق الثاني غير أن فتحات الدهليز المطلة على الفناء مستطيلة الشكل وأكثر عدداً . ويقدم الشكلان ٩ ، ١٠ من اللوحة ١٠١، الدولة الحديثة، المجلد الثاني، فكرة دقيقة عن هذا التقسيم . وهذه الدهاليز والأروقة التي توصل إلى المحلات تستخدم وقت الحاجة لتهوية البضائع التي تخزن فيها .

ولقد صدمتنا قناعة سكان رشيد ، وهي قناعة نلاحظها في

بقية أرجاء مصر. وتعد ثمرات النخيل (البلح – التمر) غذاءهم الرئيسى، وهم يأكلون معها فى نفس الوقت قليلا من الخبز المصنوع بدون خميرة وعلى شكل أقراص صغيرة مستديرة ورقيقة .

وهذا الخبز الذى أنضج فى أفران توقد بواسطة روث الماشية وبخاصة الجمال والذى جهز بالطريقة التى سبق أن شرحناها – يحتفظ بقدر من رائحة غير مستحبة بالنسبة للأجانب . ولست أستطيع أن أنسى على الإطلاق أننى كنت فى الأيام الأولى من إقامتى بمصر أشم رائحة الجمال فى كل ما كنت آكله .

الفصل الخامس

الصناعات اليدوية والحرف

كنت أنتوى أن أدون فى هذا الفصل تلك الملاحظات التى جمعتها عن الصناعات اليدوية والحرف التى يمارسها السكان فى رشيد، لكننى وجدت أن الفرق ضئيل بين الصناعات والحرف التى تمارس هنا وتلك التى تمارس فى العاصمة والتى عولجت فى مكان آخر، لذلك فقد اكتفيت أن أورد هنا بعض تفاصيل موجزة للغاية .

لاحظت باهتمام حرفة الخراطين(١) ذات الإنتاج الواسع الانتشار حيث تقوم هذه الحرفة بإنتاج كل الشبكات التى تستخدم فى البيوت لغلق فتحات النوافذ. وتحاط هذه الشبكات الجيدة الصنع بأطر خشبية لكن هذا أمر من صنع النجار... وليس ثمة ما هو أبسط من تلك الآلة التى يستخدمها الخراط،

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ١٥ ، الشكل ٤ ، الدولة الحديثة، المجلد الثانى، مع شرح هذه اللوحة .

فهى عبارة عن لوحة كبيرة أقيمت بشكل أفقى ترتفع فوقها لوحتان عموديتان، إحداهما ثابتة والأخرى متحركة، وثمة محوران حديديان بين هاتين اللوحتين، مهمتهما تثبيت القطعة التى يراد خرطها. ويتكون المثقب الذى يمررونه حول هذه القطعة من ذراع خشبية طويلة يتدلى من طرفيها سير جلدى عريض بعض الشىء. ويحرك الخراط المثقب بيده اليمنى، ويقرب ويدير الآلة القاطعة باليد اليسرى والقدم اليمنى وهى تتكىء على قضيب من الحديد موضوع هو نفسه على لوحتين رأسيتين، ويكفى ثقل هذه العارضة الحديدية فى معظم الأحيان لحفظ العروسة والتحكم فى تلك الدمية المتحركة . ومحل الخراط هو أبسط المحلات التى يمكن أن يقابلها المرء، وهو يحتوى فقط على ثلاث آلات قاطعة وثلاث أدوات للحفر ومثقب وزجاجة صغيرة بها بعض الزيت لترطيب الأجزاء التى يحدث حولها الثقب، وقفة أو سلة توضع بها الأشياء المصنعة. وهذه المحلات بالغة الصغر ويبلغ طول أى من أضلاعها مترين على وجه التقريب، ويمكن أن نرى صورة لذلك فى اللوحة رقم ٨٢ – الشكلين ٨ . ٩ الدولة الحديثة، المجلد الأول.

ولاتزال النجارة[1] هي الأخرى في طور الطفولة، فالنجار يعمل وهو راكع على ركبتيه، أو وهو جالس. وهو لايستخدم إلا عدداً ضئيلاً من الأدوات أهمها الفارة كما يستخدم بلطة يطلق عليها قدوم.

وصناعة الأقفال في مصر ليست سوى فرع من النجارة لأن الأقفال هناك تصنع من الخشب «ضبة» ويتكون القفل[2] من قطعتين من الخشب موضوعتين في الزاوية اليمنى، كل منهما فوق الأخرى، وتحتوى القطعة الرأسية على تجويف تغلقه قطعة صغيرة من الخشب مكعبة الشكل، تخترقها عدة ثقوب توضع فيها أسنان حديدية يتزايد سمكها في جزئها الأعلى، ويتساوى عدد هذه الثقوب بالضبط مع عدد مماثل من ثقوب أخرى منفذة في قطعة الخشب الأفقية والتي تتحرك على نحو تسقط فيه الأسنان الحديدية بفعل ثقلها الخاص في الثقوب السفلى ـ وذلك عندما يكون القفل في مكانه ـ دون أن تتمكن هذه الأسنان في

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ١٩ ، الشكل ٢ ، مع شرح هذه اللوحة .

(٢) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ٣٠ ، الأشكال ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦ مع شرح هذه اللوحة.

نفس الوقت من الإفلات من الثقوب العليا؛ عندئذ يقفل القفل. ويستخدم المرء لفتحه مفتاحاً ليس سوى مسطرة خشبية مزودة فى أحد طرفيها بقطع صغيرة من الحديد من نفس العيار، مصفوفة على نفس نظام الثقوب، بحيث ترفع الأسنان الحديدية للقفل عند إدخال هذا المفتاح فى التجويف المنفذ فى القطعة الخشبية المتحركة من القفل، وعندئذ يجذب المرء كلا من المفتاح والقطعة المتحركة من القفل وينزلق الكل بلا عائق ويفتح القفل.

وتعتبر صناعة النّحاس أكثر الصناعات المصرية تقدماً، وتصنع الأوانى فى رشيد من النحاس، مثل الكاسرولات والصوانى والطشوت والمواقد... إلخ مع شيء واضح من الدقة وخصوصاً إذا ماأخذنا فى الاعتبار الأدوات التى يستخدمها عمال هذه الصناعة حيث كتب عنها بإفاضة فى مكان آخر (١) .

لكن الصناعة التى يمكن القول بشأنها بأنها قد بلغت درجة يشهد معها لهذه الصناعة بالدقة ، فهى صناعة الغلايين. ففى بلد يدخن فيه الجميع غنيهم وفقيرهم فإن الغلايين تصبح ضرورة

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ٢١ ، الشكل ١، وشرحها.

أولية، لذلك فهى تصنع هناك بكميات ضخمة وبأشكال متنوعة. فهى تصنع هناك من نوع من الطين الخزفى معجون بعناية فائقة ، ويتكون من جزءين هما محرق التبغ، والقصبة، ويصنع كلاهما بشكل متكامل، وحيث يتم تشكيل هذين الجزئين كلا على حدة فإنهما يجمعان معا فور تشكيلهما، ويصنع الثقب الذى ينبغى أن ينفذ منه الدخان بحيث لايسقط الرماد إلى قاع الغليون . وشكل هذه الغلايين ليس ثابتاً ويمكننا أن نرى نماذج متعددة لها فى لوحات الآنية والأثاثات والأدوات[1] . وحين يكون الطين لايزال رطباً ترسم على محرق التبغ، والقصبة زينات تنم عن ذوق راق فى بعض الأحيان، وقد تُذَهَّب هذه الزينات فى بعض الأحيان لتصبح أكثر جاذبية .

ولثقب قصبة الغليون يستخدم العامل ماكينة صغيرة [2] على

---

(١) انظر الفنون والحرف، اللوحة ii ، الدولة الحديثة، المجلد الثانى حيث رسمت مجموعة من الغلايين .

(٢) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ٢٧ ، الشكل ١ ، التى رسمها المسيو كونتيه Contè ف القاهرة؛ وكذلك شرح هذه اللوحة .

شكل طوق يثبتها بين قدميه، وهى مزودة بخيط سميك من النحاس الأصفر، ويدخل هذا الخيط عن طريق مثقاب يندفع رأسه باستمرار حتى الطرف الآخر. ويغطى قصب الغلايين بعد ذلك بالأقمشة الحريرية التى تزينها أشرطة رفيعة أو شراشيب، وهى تنتهى بمبسم من الكهرمان ثمين القيمة لحد كبير فى بعض الأحيان .

وتأتى صناعة القفف[1] من حيث الجودة بعد صناعة الغلايين، ويتكون نسيجها من سعف النخيل، وهذه الشجرة «النخل» مصدر بالغ الأهمية فى مصر، فهى تعطى بوفرة بالغة ثماراً حلوة المذاق يتخذ منها السكان طعامهم الرئيسى، كما تستخدم جذوعها فى عمليات البناء، وتصنع من أغصانها الأقفاص التى يقام فوقها الفراش، والأرائك ، أما السعف أو الأوراق الصغيرة التى توجد بطول جانبى الأغصان فتستخدم فى صنع جدائل، تخاط بعد ذلك لتصنع منها القفف أو السلال، وهى تخاط - بمهارة وسرعة - بأحبال رفيعة صنعت هى أيضا من ليف

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ٢٠ ، الشكل ٢ ، وشرح هذه اللوحة .

النخيل. وتستخدم القفف بكثرة فى رشيد، وهى تستعمل فى تعليب كل أنواع البضائع والحبوب كما تستعمل فى نقل الأرز .

تحدثنا للتو عن الأقفاص التى تصنع من فروع النخيل . ويمسك صانعها بمثقب يحدث به كل الثقوب اللازمة فى فروع النخيل لكى تجمع بعد ذلك الأجزاء التى تكون القفص. وتشبه تلك الأقفاص مستطيلة الشكل التى يستخدمها سكان مصر تلك الكراسى المصنوعة من الخيزران التى نستخدمها فى فرنسا .

وفى بلد مثل مصر، حيث يعتاد الناس جميعاً شرب البن، كان لابد أن تنشأ مهنة خاصة لإعداد هذا البن لكى تحصل عليه كل طبقات المجتمع، لذلك توجد فى رشيد محلات[1] يحمص فيها البن وتنزع عنه قشرته، حيث توضع صوانى كبيرة من النحاس على سطح موقد، فتحمص حبوب البن، وتطحن بعد ذلك بواسطة هاونات من الجرانيت، وأيديها من النحاس. ويسبب استخدام هذه الهاونات فى بعض الأحيان بعض المساوىء، فقد يحدث فى

---

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ٢٦ ، شكل ٣، وقام برسمها فى القاهرة المسيو كونتيا وكذلك شرح هذه اللوحة .

بعض الأحيان أثناء عملية الطحن أن تنفصل أجزاء صغيرة من الجرانيت لتختلط بالبن، وقد لمست ذلك بنفسي.

وتمارس فى رشيد كذلك حرفة صياغة المجوهرات ، وفى هذه المدينة حى مخصص لهؤلاء الصاغة . وكنت بعد دخولى المدينة أمنى النفس بأننى سوف أرى محلات هؤلاء الصاغة باعتبارها أجمل محلات المدينة ، لكننى كنت مخدوعاً فى ذلك . فهى مجرد محلات معتمة صغيرة وقذرة، لايرى فيها من أثاث إلا منفاخ دائرى الشكل يعمل باليد، وموقد فقير، وبعض البوتقات الحجرية تشبه مالدينا إلى حد كبير. ذلك هو كل مايحتويه محل الصائغ، ومع ذلك فلابد أن نضيف أن فى حوزتهم شواكيش ومطارق مصممة بشكل جيد، وهم لايعرضون فى محلاتهم شيئاً من إنتاجهم بعكس مايحدث عندنا ، ويبدو أنهم لايصنعون إلا حسب المقاس وحسب الطلب، وقد شاهدتهم بعينى يصنعون خاتماً بشكل منفر خال من الذوق ، بحيث بدا شكل الخاتم وكأنه سبيكة من الذهب .

الفصل السادس

عن سحرة الثعابين

لم يتح لى أثناء إقامتى فى رشيد أن أشهد العيد الكبير الذى يقام هناك كل عام احتفالاً بسيدى إبراهيم، ولكن من المعروف أن المرء يشاهد فى العرض، الذى يشكل جزءًا من الاحتفال بهذا العيد، كل طوائف الحرف التى تصطف كل منها تحت رايات محمد التى تحمل فى شكل أقواس نصر، يتبعهم الشيوخ وهم فى هذه البلاد بمثابة القسس عندنا، ويغطون رؤوسهم بأغطية رأس طويلة تشبه تاج الأسقف، ويسير هؤلاء خلف مواكب الطوائف بخطى وئيدة وهم ينشدون بعض آيات من القرآن، وبعد هؤلاء جميعاً يأتى الحواة الذين يلتهمون الثعابين الحية . وقد قص علينا سافارى Savary هذا المشهد العجيب بالتفصيل[1] وقد كان هو

---

(1) Lettres Sur l'Egypte , t,l, p.62.

شاهداً عليه، وليس من هدفنا هنا أن نعيد ذكر أشياء معروفة، لكننا لانستطيع أن نمسك عن الأفضاء هنا ببعض الوقائع، تلك التى حدثت تحت بصرنا أو تلك التى نقلها إلينا أشخاص جديرون بكل ثقتنا. وهذه الوقائع تخص حواة الثعابين، أو سحرة العصر الحديث.

توجد فى مصر فئة من الرجال يمسكون دون أن يلحق بهم أذى الثعابين والحيات والعقارب، هؤلاء هم الحواة، شعوب الأحباش، الذين كانت لديهم حسبما يذكر سترابون Strabon القدرة الغامضة على حماية أنفسهم ضد لدغات الثعابين .

وتعتبر الثعابين والعقارب عادة فى مصر زواحف مؤذية، يمكن أن تؤدى لدغاتها إلى أوخم النتائج، وهى فى أغلب الحالات تفضى إلى الموت . وقد مر الجيش الفرنسى نفسه فى بعض الأحيان بهذه التجربة المحزنة . ينبغى إذن أن ننظر إلى الرجال الذين كرسوا أنفسهم لتخليص البلاد من مثل هذا الخطر باعتبارهم أناساً خيرين، وبمعنى آخر فإن مثل هذا الهدف الخير يتم جزئياً على يد نوع من السحرة، يستطيعون بأعمالهم هذه أن يهدئوا من روع السكان .

ويمتلك السحرة المحدثون قدرة غامضة على تخليص المساكن من الثعابين التى قد تكون بداخلها، كما يدعون كذلك القدرة على تأمين الناس ضد خطر لدغات هذه الزواحف، وكذا لدغات العقارب. ويجوب صائدو الثعابين هؤلاء شوارع مدن وقرى مصر وهم يعلنون بصوت جهورى على الناس، أنهم على استعداد لتخليصهم من الثعابين التى قد تكون كامنة بمساكنهم، وهم يحملون فى ذراعهم سلة يضعون فيها ما اصطادوه من ثعابين، ويحيطون على الدوام أعمالهم تلك بضروب من السحر .

ولكى يعرفوا إن كانت ثم ثعابين فى مسكن ما فإنهم يبدأون أولا بإعمال بصرهم والإتيان ببعض الحركات، ويتخذون هيئة منجم ويديرون أبصارهم بشكل غامض فى كل أركان الحجرة، وينتهى الأمر بأن يتوقفوا عند المكان الذى تختبىء فيه الثعابين بالفعل، ويتشممون كما لو كان ليتأكدوا عن طريق حاسة الشم من وجود هذه الزواحف، ثم يمسكون بعصا عرافة ويلفظون ببعض النصائح والمواعظ مع تغيير وإطالة فى نغماتهم وبصوت ممطوط، ويستغرق الأمر مايقرب من خمس دقائق، ثم يبصقون على الأرض وينحنون فجأة لينهضوا على الفور، وهم يشيرون إلى

ثعبان كان مختبئاً لوقت قريب فى أحد الشقوق بعد أن حملوه على عصاهم العرافة تلك . وقد يظن المرء أن هذه العملية ليست إلا نتيجة لبعض من أعمال الدجل ، لكننا نستطيع أن نؤكد أن ليس ثمة شىء من ذلك على الإطلاق، فنحن هنا نعرض وقائع كنا شهود عيان عليها، وقد جردناها من كل سحر أو من كل أمر غير عادى يمكن أن نكون واقعين تحت تأثيره، وبإمكان القارىء أن يثق بأننا هنا إنما نعرض الحقيقة عارية .

ومع ذلك فنفس هذه الوقائع فى النهاية، إذا ماخضعت للنقد والتمحيص، لاتقدم شيئاً لايمكن تفسيره بشكل طبيعى إذا ماقارناها بوقائع أخرى كنا شهوداً عليها كل يوم. ألا توجد فى الواقع آلاف الظروف التى نستمع فيها إلى تلك التبديلات والتحويرات المختلفة فى صوت الإنسان ليجذب إليه الحيوانات المستأنسة بل وحتى المتوحشة ؟ وعندما يجلس الإنسان على حافة نهير ويختبىء وسط أوراق الشجر ويختفى عن كل النظرات ألا يهرع عند سماع صوته المخادع كل ذى جناح فى الغابة ؟ فلماذا إذن لاتنجذب الثعابين هى الأخرى بفعل تحويرات معينة فى صوت الإنسان وتغادر بالتالى مكامنها؟ أما عن التعرف على

أماكن وجود الثعابين فإن من المحتمل دون ريب أن الحواة كانوا يستدلون عليها عن طريق الشم، ذلك أنه قد ثبت عن طريق الوقائع التى كانت موضع دراسة من علماء الطبيعة، وجود رائحة مسكية تعلق بهذه الحيوانات، ويستطيع من تدرب على الأمر أن يستدل على وجود هذه الحيوانات عن طريق هذه الرائحة .

أما الطرق التى يستخدمها السحرة لتأمين الناس ضد لدغات الثعابين والعقارب فتسبقها وتتبعها ممارسات غامضة من شأنها أن تبهر آلاف الناس الذين يسهل خداعهم. وهذه العملية عبارة عن وضع قليل من الماء فى إناء، ثم يضاف إلى الماء الزيت والسكر، ويجاهد السحرة فى تكوين شراب من هذا الخليط ويتمتمون أثناء ذلك ببعض الأدعية، ثم يبصقون فى النهاية فى المشروب الذى انتهوا من تجهيزه، ويأمرون الشخص الذى يطلب (العهد) ضد لدغات الثعابين والعقارب بأن يتجرع هذا المشروب، ثم يعلقون فى أذنيه ثعبانين كبيرين من أسنانهما، ويتركونهما هكذا لمدة ربع الساعة، وعندئذ تنتهى العملية ويدفع المريد من كيس نقوده ثمن الخدمات التى أديت له، ثم ينصرف وهو مقتنع بأنه سيكون فى المستقبل آمناً من لدغات العقارب والثعابين.

هل يمكن الاعتقاد بأن هؤلاء الذين يقومون بهذه الأعمال دون أن تلدغهم الثعابين مجرد دجالين؟ هذا بالتأكيد مالايمكن لشخص واع أن يحاول الاعتقاد به. لكن يمكن القول إنهم قد حصلوا على هذه النتائج بسبب أن شعورهم بالخوف قد ضعف لحد كبير، فهم يتجرأون على هذه الحيوانات لأنهم ـ كما يمكن القول ـ قد ألفوها .

لذلك فهم يستطيعون نتيجة لحالتهم تلك أن يقربوها بثقة بل وعن طيب خاطر، وحيث إنهم لم يعودوا يخشونها فهم يحاذونها بنوع من الطمأنينة لاتشى بأنهم من جانبهم ينتوون بهذه الحيوانات شراً، وهو سبب كاف لئلا تسبب لهم هذه الزواحف أى أذى، إذ من المعروف جيداً أن كثيراً من الحيوانات لاتضر بالإنسان إلا إذا اقترب منها بكثير من الحذر، مما يجعلها تظن فيه نوايا عدوانية نحوها. ومع ذلك فكيف يمكن فى الواقع أن نفسر كيف أن أناساً يستطيعون ـ كما يفعل هؤلاء السحرة ـ أن يحملوا فى ثنايا ملابسهم بل وعلى صدورهم نفسها زواحف مختلفة يلتقطونها كيفما اتفق دون أن يقع لهم حادث مزعج ، وأن يضعوا العقارب تحت طربوش عمامتهم دون أن تلدغهم؟ أياً كانت

الإجابة فهذا هو ما شاهدناه فى كل مدن مصر، ولن يكون ثمة جدوى إذا ما فسرنا هذه الظواهر عن طريق افتراض أنهم قد نزعوا أسنان الثعابين أو قطعوا فكى العقارب، فقد أمكننا أن نتأكد أنهم لايخضعون هذه الحيوانات لأى نوع من البتر، كما قد علمنا – عن طريق أناس جديرين بكل ثقتنا وتصديقنا – أن نفس هذه الحيوانات التى لاتضر بهؤلاء «المأنونين» كثيراً ماسببت للآخرين أحداثاً بشعة (*) .

(*) انظر دراسة مشابهة لذلك، فى المجلد الأول من الترجمة العربية المصريون المحدثون، الملاحق ، « فن الأفاعى أو سحرة الثعابين » .المترجم .

الفصل السابع

الرحيل من رشيد إلى القاهرة

بعد أن مكثنا فى رشيد لمدة مايقرب من ستة أسابيع ، أبحرنا فى الأول من فريكتيدور من العام السادس «١٧ أغسطس ١٧٩٨» فى حوالى الساعة السادسة ، على ظهر سفينة كانت مخصصة للقيام بعمليات الاتصال مع القاهرة، لكن الليل الذى لم يلبث أن طوانا فى عتمته لم يمكننا على الإطلاق من أن نستمتع بمشاهدة شواطىء النيل، ومع ذلك فقد واتتنا الفرصة، فى أثناء اللحظات القليلة التى أبحرنا فيها ولما يزل فى الأفق ضوء الشفق، أن نلم فى الدلتا بمناظر طبيعية كثيرة التنوع وبالغة الجمال فى نفس الوقت. وقد أعطى أفول الشمس لأشجار النخيل ملمحاً داكناً كما أظهر مجموعات الأشجار المختلفة التى كانت تلوح لناظرنا بشكل أكثر كثافة، وإذ كانت الريح هادئة فقد قطعنا خلال الليل

مسافة قصيرة فقط من الطريق، بحيث لم يفتنا الكثير من مشهد شواطئ النهر .

وفى اليوم التالى رأينا عدداً أكبر من القرى، ومررنا على التوالى أمام مطوبس وديروط وهما قريتان كبيرتان لحد ما، ثم وصلنا فى الحادية عشرة إلى ميناء فوه، ويتعرض النيل لعدد هائل من التعرجات (١) فيما بين هذه المدينة ومدينة رشيد . وقد بنيت معظم هذه القرى – التى لفتت انتباهنا – من الطين(٢) بطريقة تبدو معها وكأنها أكوام من الطين المجفف، وهناك بعض البيوت المبنية من الطوب، ومنازل هذه القرى واطئة، وقلما ترتفع فوق الأرض لأكثر من اثنى عشر قدماً . وتعلو بعض هذه البيوت أبراج حمام بنيت بشكل هرمى، وتتجمع داخل هذه الأبراج أعداد لاحصر لها من الحمام، وفضلاً عن ذلك فبيوت القرى مجرد أكواخ قذرة قبيحة المنظر يخرج من جوفها – فى «عز» حرارة الصيف الشديدة – سكانها، وهم نصف عراة لينهمكوا فى أعمال

(١) انظر الأوراق ٣٦، ٤٠ من الخريطة الكبرى لمصر ، والتى تقع فى ٤٧ ورقة .
(٢) انظر اللوحة ٧٩ ، الأشكال ٢، ٣، ٤، الدول الحديثة، المجلد الأول .

الزراعة المرهقة، فيبقى بعضهم إلى جوار جاموساتهم التى تدير السواقى ذات القواديس (١) التى تنهض على ضفاف النيل والتى تسمع عن بعد ضجتها الزاعقة والرتيبة فى وقت معاً، ويقود البعض الآخر حيواناتهم التى تجر المحراث والتى تعلق بنيره، ويمكن القول بأن المحراث لايفعل إلا أن يخدش سطح الأرض، ويجلس عدد كبير من الفلاحين فى وضع متدرج على شاطىء النيل يروون الحقول المزروعة بصعوبة بواسطة الدلو « الشادوف » تحت إشراف المالك أو المزارع. وقد شاهدنا فى مكان آخر رجالاً لايعملون إلا بالصيد، ويقف هؤلاء وهم عراة - كما ولدتهم أمهاتهم - على شواطىء النهر معرضين أجسامهم للهيب أشعة الشمس، ويحملون فى أيديهم قصبات طويلة معلقة فيها شباك، وينتظر الصيادون فى صبر وأناة حتى تأتى السمكة من تلقاء نفسها لتدخل فى شباكهم. وتمنحهم مياه النهر العكرة الثقة منذ بداية الأمر أنهم سوف يحصلون على ثمن صبرهم وأناتهم تلك.

وليست أشجار النخيل وحدها هى التى تشكل زينة لشواطىء

(١) انظر نفس اللوحة؛ وكذلك اللوحة ٧٨ ، الشكل ١ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

النهر، فثمة أشجار الجميز وهى تعطى للمشهد تنوعاً محبوباً وتمد إلى بعيد ظلها المرتجى، وقد لاحظنا أن أغصان هذه الشجرة الجميلة تتحرك كلها فى نفس الاتجاه وهو اتجاه الرياح الشمالية الغربية التى تسيطر معظم الأوقات على البلاد .

وقد بنيت فوه فى واحد من أجمل المواقع على شواطىء النيل، ويصنع أحد أذرع النيل جزيرة فيما قبل هذه المدينة، ويشكل الفرع الرئيسى الذى يتجه نحوها بشكل شبه عمودى ترعة واسعة أو قل إنه نوع من لسان البحر الذى يبدو وكأنه قد امتد إلى هنا عن عمد ليقدم مثل هذا المشهد الرائع. وكانت فوه فيما مضى وكما سبق لنا القول هى المكان الذى ترسو فيه كل سفن أوربا، لكن المزايا التى كانت تعود إليها، قد انتقلت كلها إلى مدينة رشيد وذلك منذ أن ابتعد عنها مصب النيل نتيجة لامتداد الدلتا، ومنذ أن ردمت أو سدت الترع التى كانت تربط مابينها وبين الأسكندرية. ولقد تضاءلت فوه اليوم لتصبح فى وضع قرية لاتتميز عن بقية قرى الدلتا إلا بجمالها وتنوع أشكال مآذنها ومساجدها العديدة. وشوارع فوه بالغة الضيق، ويسكن العوالم أحدأحياء هذه المدينة،

وهن أولئك الراقصات اللاتى يمتعن برقصاتهن الشهوانية والخليعة والتى تدور على أنغام موسيقى منفرة، أثرياء أهل البلاد وكذلك القابعات فى معاقل الحريم .

وما أن غادرنا فُـوَّه حـتى وصـلنا بعد قليل إلى مابين قريتى الشـرفا (*) وسـرتباى اللتين تـواجـه كل منهما الأخرى على شاطىء النيل، ثـم اجتزنا دسوق وهـى قرية كبيرة تقع فى داخل الدلـتـا، وبعد مسافة قصيرة من هناك بلغنا مرتفع الرحمانية، حيث تلوح تلك الترعة التى تتفرع عن النيل لتحمل المياه إلى الأسكندرية.

وعندما كنا نقترب من القرى كان الأهالى يهرعون بفعل فضولهم إلى الشط تملؤهم الثقة، وقد لاحظنا من بينهم كثيراً من الأطفال، والفتيات الصغيرات على وجه الخصوص، وهؤلاء كن عاريات تماماً، وهو تناقض يبعث على الغرابة مع تلك العادة الصارمة التى سترغمهن فيما بعد على أن يحتجبن بعناية شديدة ، وبشرتهن غامقة اللون بل تكاد تكون سوداء . وفى بعض الأحيان كنا نصل إلى القرب من بعض القرى دون توقع من

(*) لعله يقصد قرية الشراك أو الأشراك وهى إحدى قرى مركز شبراخيت .(المترجم)

أهاليها، عندئذ كانت تسارع تلك النسوة، اللاتى كن على شط النيل ليغترفن المياه واللاتى كن سافرات الوجوه ثقة منهن أنهن وحدهن، يسارعن ما إن كن يلمحننا برفع ذيل ملابسهن ليخفين وجوههن (١) تاركات بذلك نهباً للرؤية أجزاء من جسم المرأة تخفيها النسوة فى أماكن أخرى بعناية بالغة. ياله من اختلاف يبعث على الدهشة بين عادات أوربا وعادات إفريقيا! وقد هيأت لنا هذه الأمور برغم ذلك الفرصة كى نرى تلك القامة الممشوقة والجذابة لنسوة الطبقات الشعبية ونتأمل جمال تكوينهن، وهو مايتناقض بشكل غريب مع ملامح وجوههن، فبشرة النساء شأنها فى ذلك شأن بشرة الرجال تميل للون النحاسى الغامق .

ويحب المصريون الاستحمام حباً شديداً ، وهو ميل طبيعى فى بلد على مثل هذه الدرجة من الحرارة ، وقد شاهدنا ونحن فى طريقنا عدداً كبيراً منهم يهرعون إلى النهر ويعومون بمهارة لاتصدق، وكثيراً ماكانوا يخرجون من الماء ليغطوا أجسامهم

---

(١) انظر الملابس والوجوه، اللوحة A، وستجد رسماً لإحدى نساء الشعب اللاتى نتحدث عنهن هنا .

بالتراب، ويظلون لفترة معرضين أجسامهم للأشعة الحارقة ، ثم ينهضون ليغمسوا من جديد أجسامهم فى النهر.

ومع مواصلة طريقنا إلى أعلى النيل كنا نلمح مشاهد طبيعية كانت تشد أعيننا أكثر فأكثر لتغرينا على التطلع، فقد كنا نرى أماكن شاسعة أرضها قاحلة وليس بها بشر، ولقد رأينا فى الدلتا على وجه الخصوص سهولا شاسعة غير مزروعة، يغطيها الكلأ وأعشاب لاجدوى منها، ولاتحتاج هذه السهول كى تكون منتجة إلا لأيد نشطة وعاملة لأن الأرض هناك خصبة وجيدة، كما أن المياه اللازمة لإنمائها غير بعيدة عنها.

وفى أثناء مرورنا أمام قرية صان الحجر لمحنا سوراً هائلاً وتلالا من الأنقاض تعرفنا فيها على أطلال سايس القديمة (١). وعن طريق سايس وصلنا إلى مرتفعات الفرستق عند فتحة ترعة كبيرة تسمى ترعة شبين الكوم، وهى تصل مابين فرعى رشيد ودمياط خلال المنطقة الوسطى من الدلتا .

---

(١) انظر رحلة إلى أعماق الدلتا ، المجلد الثانى ، ص ١١٦ ، الدولة الحديثة ، وكذا العصور القديمة . الفصل ٢٥ .(المجلد الثالث من الترجمة العربية) . المترجم .

وفى بعض الأحيان ينحصر النيل داخل مجرى شواطئه العمومية ليرتفع فى أثناء فترة الفيضان التى وصلنا خلالها إلى مابين ٦ ـ ٧ أقدام فوق مستوى سطح البحر، وفى أحيان أخرى لايعود النهر يعرف لنفسه حدوداً ويمتد إلى بعيد، وهذا ما أمكننا أن نراه على وجه الخصوص ابتداء من الفرستق حتى قرية نادر عند فتحة ترعة منوف الكبيرة، التى يمكن اعتبارها بمثابة نهر (١) يربط خلال الجزء العلوى من الدلتا مابين الفرعين الرئيسيين لنهر النيل .

وفى هذه الفترة من العام والتى قمنا خلالها برحلتنا هذه كان أكبر عدد من الجزر وكتل الرمال يشاهد فى نفس هذه الفترة حقولا كاملة من البطيخ الذى امتدحه كثير من الرحالة وهم محقون فى ذلك، فهذا البطيخ قد أنقذ منذ وقت قريب حياة عدد كبير من الفرنسيين فى أثناء زحفهم العسير من الأسكندرية إلى القاهرة. أما محصول الذرة فكان فى قمة ازدهاره فى حقوله التى تمتد حول شواطىء النيل .

وقد جنح قاربنا مرات عديدة فى تعريجات النيل حين كانت

(١) انظر رحلة إلى أعماق الدلتا وكذلك الأطلس الجغرافى .

تأتى الرياح معاكسة لاتجاهنا. عندئذ كان كل البحارة - بعد أن يخلعوا ملابسهم - يلقون بأنفسهم فى المياه ويجرون القارب بالحبال. وطيلة طريقنا كانت تصدمنا قناعة الناس، فلم نشاهدهم مطلقاً يأكلون إلا خبزاً جافاً أسمر اللون، يغمسونه فى بعض الأحيان فى ماء مغلى، وهو مايشكل نوعاً من الحساء غليظ القوام يأكلونه بأصابعهم.

وبين مسافة وأخرى كنا نلمح على شواطىء النيل أكواخاً صغيرة كان يأتى إليها الرجال والنساء للراحة والاحتماء من لهيب الشمس، وهى عبارة عن أربعة من فروع الأشجار مغروسة فى الأرض وتوضع فوقها أغصان جافة. كما كانت تدهشنا تلك الأعداد الكبيرة من قطعان البقر والجاموس التى كنا نلمحها على الشاطىء الآخر. وتحب الجاموس الماء كثيراً وتبقى فيه لمدة طويلة حيث تغمس أجسادها حتى رأسها. ومن المشاهد التى تبعث على الفضول أن ترى قطعاناً بأكملها من الحيوانات تعبر النيل أو تستحم فيه، وكثيراً ماشاهدنا رجالاً وأطفالاً صغاراً يتسابقون فى عبور النهر وكانوا يمسكون تحت إبطهم بحزمة من القرع

لتحملهم، وكانوا يعقدون ملابسهم حول رأسهم كما كانوا يستخدمون أيديهم كمجاديف لتغيير الاتجاه .

وبعد أن استمتعنا بكل هذه المشاهد المتنوعة وبكل مايلفت الانتباه وصلنا إلى بطن البقرة، وهى النقطة التى ينقسم عندها النيل إلى قسمين ليشكل فرعى دمياط ورشيد. ويبلغ اتساع النهر هناك مداه حتى ليظن المرء نفسه يسبح وسط بحر .

كنا قد لمحنا بالفعل الأهرام الشهيرة عندما كنا مانزال بعد على مسافة أكثر من ثمانية أو عشرة فراسخ، وما إن كنا نتقدم حتى كانت تبين أكثر فأكثر تلك الهضبة التى تنهض فوقها الأهرام، ثم ظهرت الأهرام نفسها بمشهدها الطاغى. وفى أثناء رحلتنا هذه كنا ننزل فى بعض الأحيان من قاربنا ونذهب نلتمس البطيخ من القرى المجاورة، وقد استقبلنا الفلاحون بحفاوة، وباعونا بلهفة تلك الفاكهة التى وجدناها لذيذة للغاية فى بلد يكاد يحرقها لهيب الشمس. وفى أثناء جولاتنا تلك خارج قواربنا لمسنا كم أن الشمس حارقة، كما وجدنا السماء ملتهبة وخانقة بسبب ما كان يقابلنا من لفحات هواء، بدا لنا ساخناً، كما لو كان يصدر

عن فتحة فرن.

وفى أثناء ذهابنا من بطن البقرة إلى القاهرة لمحنا على الشط الأيمن رجلا وامرأة راكبين فوق ظهر جمل وكان يسير خلفهما أهلهما وأصدقاؤهما، وهؤلاء بدورهم يركبون الجمال التى كانت بالإضافة إلى ذلك تحمل الأمتعة . لقد كانت زوجة جديدة وكان زوجها يصحبها إلى مسكنه ، وبدا لنا وكأننا نرى ربيكا[1] تسير خلف الخادم العجوز لإبراهيم ، والذى جاء يصحبها لتصبح زوجة لابن سيده [2] . وفى كل خطوة فى مصر سوف تجد هكذا تلك التقاليد والعادات كما جاءت فى نفس شكلها الساذج والبسيط فى سفر التكوين.

وأخيراً وصلنا إلى بولاق فى الثالث من فريكتيدور فى حوالى الساعة الخامسة مساء، ويمكن اعتبار هذا المكان بمثابة ميناء للقاهرة، عاصمة مصر، والتى سوف تكون بعد قليل موضع فضولنا الذى لايشبع.

---

(١) سفر التكوين، الأصحاح ٢٤، الآية ٥١ .

(٢) سفر التكوين، الأصحاح ٢٤، الآية ٦١ .

الفهـــرس

رقم الإيداع
١٩٩٢/١٥٧

I. S .B . N.
977 - 00 - 2562 -3


الكتاب القادم :
أعمـــاق الدلتـــا

